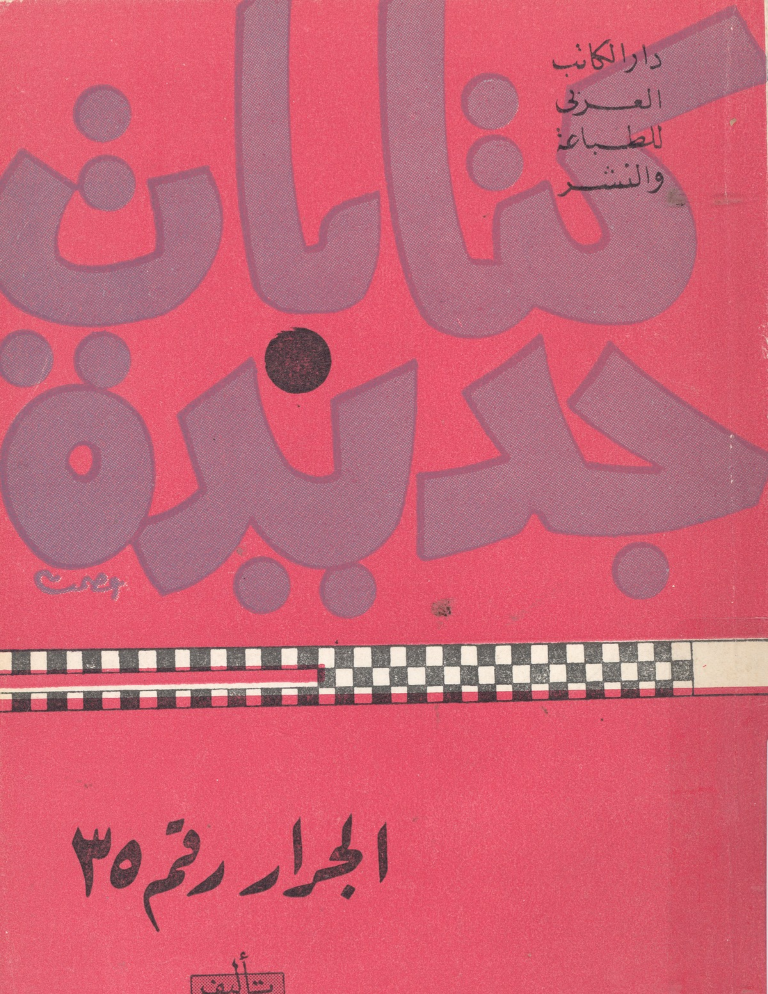


الجرار رقم ٣٥

تأليف

فتحى سلامة

إهـــــــداء ٢٠٠٨

السيدة / نعم الباز

جمهورية مصر العربية

الجرار رقم ٣٥

تأليف

فتحي سلامة

الغـــــــلاف : عصمت محمد احمد
الرسوم الداخلية : اسماعيل دياب

اذا كان لنـــا الحق فى أن نحلم كما نشاء ، علينـــا أولا تغييـــر افكارنا كلية لتصبـــح أحلامنا ممـــكنة الرؤية ومعبرا لتحقيق حياتنا الجديدة ..

وبالفـــاس والقطف ونهـــر النيل بنينـــا الأهرام وأحــــلام الفراعنة ..

وبالجرار ونهر النيل سنبنى قاعدة فوق السماء السابعـــة لأحلامنا .

مع تحيات سائق الجرار رقم ٣٥
« ... »

- ١ -

نعم ....

مجموعة من الصبية . لا يتجاوز عمر أكبرنا العاشرة ، واصغرهم أنا فى السابعة ، وكنا نجلس على حجر أملس أمام ضريح (سيدى يوسف) ، نحكى مانحفظ من حواديت ونوادر ، كانت هذه عادتنا كل ليلة ، بعد أن نكون قد فرغنا من جرينا وصياحنا ، فى ليالى قريتنا المقمرة .

نعم ، ما أجمل تلك الليالى التى مضت ، وما أحلى تذكرهـا مع الجلوس بجوار تلك الآلات المعفرة بالأتربة والشحوم ، والصحراء حولنا ممتدة الى ما لا نهاية وكل واحد منا مع ذكرياته انفرد بها يجذبها من ماضيه ويجترها بهدوء ، ربمـا ذكرياته مع زوجتـه وأطفاله ، أو مداعبات طفولته ، أو حواديت صباه .

والليل فى قريتنا هادىء تمـاما ، البيوت فى حضن القمر وذرارى القش يعبث بها الريح الرطب فترسل صوتا كأنين القطط وفناء الطاحونة بما فيه من أكوام الرماد ، يبدو قبرا للأشـباح تتوارى خلف ظلال تلال الرماد ، تصحو مع كلمات الأقاصيص التى نرويها عن العفـاريت والأشباح والأرواح الشريرة و (كسـاب) يروى ماسـمعه وما حفظه منهـا ونحن ننظر فى رعب الى فنـاء الطاحونة .

ما أقرب الشبه بين تلك الليالى ، فى قريتنا البعيدة النائمة فى حضن النهر ، وهذه الليلة فى الصحراء ، أكوام الرمال وانعكاس ضوء القمر عليها ، حفيف الحشرات وهى سائرة على الرمال ، والرجال وهم جالسون حول الآلات حولهم صفائح البترول متناثرة فى فوضى حزينة ورعب فى القلوب من شيء غير معلوم ، ولكن يبدو أن هناك تباينا بين الصورتين ، ففى قريتنا كنت (عبد الستار) الطفل تداعبه أحلام غير واضحة عن المستقبل ينصت فى شوق ممزوج بالخوف الى قصص العالم المحيط به ، وهنا ، الليلة ، فى الصحراء بعيدا عن قريتى الطيبة ، عامل تداعبه الذكريات فى ليلة مرهقة يجترها فى لذة ممزوجة بالخوف .

وضحكنا جميعا حينما أنهى (كساب) الحدوتة بطريقة لم نكن نتوقعها ولكن نظرات (محمد الصياد) جعلتنا نختصر فى ضحكاتنا الى حد ما ، فهو يرى أنه يقص خيرا منه وأفضل ، وكما كان (محمد الصياد) صبيا قويا يفرض زعامته ، كان (كساب) ، هو الآخر مشاكسا ومنافسا له فى الزعامة ، فانبرى له معترضا لا يقبل الهزيمة فى سكون ، وكان رغم صغر حجمه وضعف عوده يدخل فى العراك مع اى صبى من صبيان الحارة لا تهمه النتيجة بقدر ما يهمه دخول المعركة ــ حقا أين أنت الآن يا (كساب) ؟ ! وماذا فعل بك الزمن ؟ ! .

واجتذبت شخصية ، صديقى كساب ، بؤرة الذاكرة ، واستولت عليها وأهاجت عاطفتى نحوه .. لو كان معى الآن ، فى تلك البقعة البعيدة فى الصحراء لجلسنا نقص معا حديث الطفولة ، وخاصة قصة ذلك الفقيه الذى سرق الشاى وهو يتلو القرآن وكيف ضبط وماذا فعلنا به ولكن كساب الآن فى مكان ما ، لا اعلم عنه شيئا وهو أيضا لا يعلم .. وربما سمع أو أخبره شخص ما اننى اصبحت موظفا فى الحكومة حيث اننى دخلت المدرسة وظل هو يروح ويجىء

خلف حمار ابيه ، اغلى آمانيه أن ينجح فى سرقة بعض حبات الطماطم أو يخطف بعض الحلوى منى ، فقد كانت طباعه على نقيض من طباعى ، فبينما أنا هادىء ساكن لا أفعل ولا اجرؤ أن أفعل شيئا ، كان هو لا يكف عن الحركة ، وأحيانا ، كنت أحسده على (شيطنته) ويحسدنى هو على ملابسى النظيفة وقطع الحلوى التى تملأ جيبى ، ما أكثر شوقى اليك الآن يا (كساب) وما أشد لهفتى على سماع أخبارك !!

جذبنا محمد الصياد من ملابسنا حتى تقترب رؤوسنا من رأسه وأخذ يقص علينا قصة (الجنية) التى ركبها (عم مغاورى) وتساءلنا جميعا :

ــ هل الجنية يمكن ركوبها ؟ !!

هذا شىء لا يصدق !!

وتعجبت أنا غاية العجب ، فرغم أننى أعيش وسط قرية يزيد فيها عدد الحمير عن عدد راكبيها ، الا أننى أفشل دائما فى ركوب الحمار ، وكثيرا ما سخر منى هذا الولد اللعين « كساب) . فكيف يركب عم مغاورى وهو الرجل الطاعن فى السن (جنية) . لا شك أنها أضخم من الحمار وأكثر حركة !!! ..

أيام !! .

ما أشد سذاجة عقولنا ونحن صغار ، ولكن ما كان أشد سعادتنا بهذه السذاجة !! وحينما تخلت عنا هذه السذاجة وامتلأت الرؤوس بالعلم والمعرفة والطموح ازدادت تعاستنا وغالبتنا الأمراض والأحزان .

رحنا جميعا نتساءل ، كيف ركب عم مغاورى الجنية ، مع ما للجنية من مكر وخبث وذكاء وامكانية التشكل فى جميع الصور

فهى قادرة على أن تظهر فى صورة فتاة جميلة تجتذب عيون شبان القرية حتى اذا ما اقتربوا منها وظنوا أنهم نالوها وجدوا انفسهم فى لجة النهر ، أو تظهر فى صورة ارنب مذعور يجرى خلفه الصبية فاذا ما اقتربوا منها ، قذفت بهم فى بئر الساقية ، أو تتشكل فى صورة اخرى مثل بقرة أو جاموسة أو حصان أو حمار ، فما أصعب اذا ركوب هذه الجنية !! ..

— نعم ، على شكل حمار .

هكذا صاح محمد الصياد ، وهو يكمل روايته .. ظهرت الجنية على شكل حمار ، وعم مغاورى جالس بجوار الساقية وحيدا ينظر الى النهر ، ومن خلفه حقوله جرداء من غير زرع يفكر كيف يأتى بالبذور والسماد وليس لديه حمار يحمل عليه ، والحقل بعيد والفيضان يقترب ، حيث تغرق أرضه كل عام بسبب هبوط الجسر الذى يفصل الأرض عن النهر ، لو انه استطاع أن يقوى هذا الجسر بالقش والأتربة لأمكن ان يصد عنه هجمات الفيضان ولانقذ محصول أرضه ، ولكن أفكار عم مغاورى بعيدة وحزينة ، فهو لا يملك ما يعتمد عليه فى ذلك ، فليس لديه حمار ، وظل يفكر من أين يأتى بهذا الحمار ، وظهرت له فجأة الجنية فى شكل حمار .

وتحمسنا جميعا وأصخنا السمع .

— ماذا يفعل عم مغاورى فى هذه الحالة ؟ لو حسبها حمارا حقيقيا لضحكت عليه وجذبته الى قاع النهر ، وهناك تمتص دمه وتبقى أرضه خرابا ترقص الجنية فيها كل ليلة . وكدنا نبكى لمصير عم مغاورى الرجل الطيب فى قريتنا ، وابنه صديقنا الذى يلعب معنا فى بعض الأحيان .

وأخذنا ندعو لعم مغاورى بالنجاة ، بل أخذ البعض منا يصيح في عم مغاورى يحذره من الجنية ، ولكن محمد الصياد قاطعنا وهو يقول :

ـ هل تريدون أن تعلموا ماذا فعل عم مغاورى مع الجنية ؟ .

ـ ماذا فعل ؟ .

صحنا جميعا ونحن فى أشد الشوق الى معرفة النتيجة ، جذبنا هذا الولد العفريت الى سماعه ، وحبست أنفاسى حتى أسمع تكملة القصة ، فقد كنت شغوفا وعاشقا للقصص والحواديت بل اننى ما رغبت فى ملاعبتهم ومصاحبتهم الا انتظارا للحظة قص الحواديت فلم تكن بى رغبة على الاطلاق فى لعباتهم وسماع صراخهم وتناحرهم الدائم على شيء أو لا شيء ، ولكن حبى لسماعهم وهم يقصـــون الحواديت والنوادر يدفعنى الى تحمل كل شيء .

وتعلقت عيناى بشـــفتى الصياد أنتظر ختـــام القصـــة ، وكل حواسى منتبهة أشد الانتباه ، ولم يختلف عنى بقية الصبية فى هذا الاهتمام بخاتمة الرواية ، وكلما تحرك أحدهم ، صحنا فيه أن يسكت ، وكلما ارتفع نباح كلب امتدت عشرات الأيدى تقذفه بالحجارة ليصمت أو يرحل . ومحمد الصياد ، وكأنه يتعمد أن يزيد من تلهفنا ، يصف كيف كان يجلس عم مغاورى والمسبحة فى فى يده ، ويده الأخرى تعبث ببعض الأمتعة التى كان يرتقها ، والجنية بصورة حمار محملة بالأتربة ترعى بعض العشب النابت على الجسر ، زيادة فى التنكر .

ولكن ونحن فى أشد حالات الانبهار والترقب الى سماع نهاية الحدوتة وما سيفعله عم مغاورى مع الحمار الجنية ، اذ بصوت كعويل امرأة يصدر من ركن فى فناء الطاحونة المهجورة ويتكرر ثلاث مرات فى كل مرة له صدى ، واتجهت أبصارنا المذعورة ناحية

الطاحونة فرأينا أشباحا تتحرك بسرعة مهرولة ، وفي هذه اللحظة صاح أحدنا :

ـ عفريت ... عفريت ...

وكانت هذه الكلمة كافية لأن تجعلنا ننطلق ، جميعا ، كأرانب مذعورة يدفعنا الخوف من العفاريت نتخبط في الأزقة الضيقة المظلمة التي لا يصلها ضوء القمر ، والحمد لله ، كان منزلنا قريبا ، فارتميت على باب المنزل أدق بيدي وقدمي وأنا انتفض من الخوف والرعب ، التصق في الباب وأهزه وكأن شيئا مخيفا يقف خلفي مباشرة ، ومضت لحظات كأنها الدهر كله واستقبلتني أمي متسائلة ، ولكني انفلت منها بسرعة ورحت أعدو صاعدا السلم حتى وصلت الى فراشي وارتميت عليه وأمي خائفة ملهوفة تخشى أن يكون مكروها قد مسني ، وأنا وحيدها ، وراحت تهدهدني ، وتضمني الى صدرها وتداعبني وتمنيني ببعض الأماني ، حذاء جديد وجلباب جديد ، وبيض بالسمن بل وعدتني بشراء علبة كبيرة من العجوة احتفظ بها كلها لنفسي ، ولكن كل هذه الأماني والوعود والكلمات الجميلة لم تفلح في ابعاد الخوف من العفريت .

كم أنت رحيمة يا أمي ، وكم كنت حنونة ، وكم من الأماني كنت تعقدينها علي .. ولكن يا أمي الحبيبة رغم هذا الحنان والحب ضيعت امانيك ، ومزقت أحلامك ، وقذفت بآمالك في جوف بئر الخوف ، ودفنت فرحتك في رمال اخطائي وسوء تصرفي ..

حقا ، كم كنت رحيمة حينما رحت تهدئي من روعي وتقصي علي قصصا جميلة ، الشاطر حسن والأميرة نوار ، وبدور أم الدهب المنتور ، وعقلة الصباع الشجاع ، ولكن لا فائدة ، فقد كانت النافذة مفتوحة أمام عيني وأنا في أحضانك على فراشي وعلى الحائط المقابل للنافذة تتراقص مجموعة هائلة من الأشباح ، وتلهو أحيانا

وتصرخ احيانا ، والصوت الذى سمعته فى فناء الطاحونة المهجورة يتردد ، وكلما نظرت الى سقف الحجرة رأيت اشباحا أخرى على شكل سيدات عرايا ، جنيات .

وبالطبع كنت ساذجا فى تلك الليلة ، فقد اكتشفت ، فيما بعد .. بعد أن كبرت .. أن هذه الأشباح التى ظهرت على جدار الحائط المقابل لنافذتى ما هى الا تهدم بعض طلاء الجدار فكونت القشرة البيضاء من الطلاء مع لون الطوب الأسود صورة هذه الأشباح ، وكذلك تلك الأشباح التى ظهرت على سقف الحجرة ـ كانت انعكاسا لضوء اللمبة على ستائر السرير المحلاه بنقوش على شكل راقصات .

ورغم الخوف الذى سيطر على فى هذه الليلة الا اننى ظللت أتساءل ماذا فعل عم مغاورى بالحمار الجنية ، وكيف استطاع ركوبها ؟ !!

واحسست بشدة برودة جو الصحراء من حولى ، فأخذت أندس فى فراشى وأشد حبال باب الخيمة .

- ٢ -

صحوت من نومى ، بعد تلك الليلة المليئة بذكريات الطفولة وأحلامها ، على نباح كلب ، وأثار دهشتى أن أجد كلبا هنا فى المنطقة الصحراوية القاحلة والتى تبعد كثيرا عن العمران ، لا يجاور معسكرنا سوى بضعة خيام لبعض البدو الرحل يتنقلون خلفنا من مكان الى آخر ويتعيشون من الأعمال التى يؤدونها لنا ، يصنعون الشاى أحيانا ، وأحيانا أخرى يساعدون فى حمل متاع المعسكر ولوازمه ، وفى الغالب لا يصنعون شيئا سوى حراستنا من بعضهم البعض . وهم ـ فوق ذلك ـ أناس طيبون ، وكثيرا ما قدموا لنا خدمات هامة فى هذه المناطق الصحراوية التى تجدى فيها الخبرة أكثر من الكتب ـ وبالطبع ليس من عادة هؤلاء البدو اصطحاب الكلاب ، وان كان بعض البدو الرحل يفعلون ذلك ، فهؤلاء لا يفعلون وربما يرجع سبب ذلك لقلة مواردهم الغذائية فوجود الكلب ، كان بالفعل شيئا يثير الدهشة والعجب وسبب تجمع العمال حوله يلاطفونه ويداعبونه ويتحدثون اليه وكأنه يفهم ما يقولون ـ على الرغم أنه ظل ينبح بشدة ، وتقدمت نحوهم ، بدافع الفضول أنا الآخر ، ولكن (طلعت) صاح حينما رآنى ، قائلا :

ـ هذا الكلب عنده عقدة الاغتراب ! ويحتاج الى خدماتك .

فهمت ما يرمى اليه (طلعت) ولكننى تظاهرت بالعكس ، فأضاف قائلا :

ــ حالة تستحق الاهتمام ، أرنى كم أنت اخصائى اجتماعى شاطر !

وقد نسيت فى خلال حديثى السابق أن أقول ما يدل على طبيعة عملى ــ معسكرنا هذا جزء من مجموعة بعثات الاستكشاف التابعة لمؤسسة استصلاح الأراضى الصحراوية ، نبحث عن الماء فى جوف الصحراء وأعمل كمشرف للاعاشة فى المعسكر ، وأحمل مؤهلا عاليا فى الدراســات الاجتماعية ــ وهــذا المؤهل رغم عدم جديته هنا ، جعلنى موضع احترام بالغ كخبير فى النفس البشرية فى المعسكر وأيضا فرصة بالنسبة لطلعت لكى يسخر منى ما شاء له ذلك ! حتى انه يجعلنى أشعر بشىء من النفور منه أحيانا .

وبغضب هائل نحو الكلب الذى ينبح والذى أعطى الفرصة لهذا المهندس (طلعت) أن يذكرنى بتخصصى العلمى بهذه الطريقة الساخرة تقدمت مخترقا حلقة العمال المطبقة حول الكلب ، ثم استدرت ناظرا اليهم صارخا فيهم بالابتعاد والتفرق . ودب الذعر فى قلب الكلب الصغير فلاذ بالصمت وهو يئن أنينا مؤلما ، جعلنى اتراجع فى خجل .

و (طلعت) دائما يثير نقاشا حول مسائل التخصص هذه ؛ ويتحدث عنها بشىء من التهويل والمبالغة ، ويتباهى دائما بأنه متخصص فى أبحاث المياه الجوفية ويعمل فى مجال تخصصــه مهندسا للبعثة ، ثم يدور حول تخصصى أنا ويردد وفمه تعلوه ابتسامة ساخرة !

ــ متخصص فى بواطن النفوس ، ويعمل مشرفا للطعام والنوم لا يهمه سوى أقراص الجبن وعلب السردين .

حقيقة ما يقول ، ولكن أليس لعملى هذا شىء من الأهمية ؟ عد قطع السكر والبسكويت وحساب كمية الملح والعيش والعلب ،

وارسال الأعراب للبحث عن ماء الشرب والاهتمام بالخيام الممزقة ، وما الى ذلك من أمور ، أليس كل هذا مهما ؟ !

ثم انني بعد ذلك ، أواظب على القراءة ، أقرأ القصص والروايات وفى المساء بعد أن نفرغ من شرب الشـاى ، ومن الحديث المعتاد : ويجلس كل منا داخل نفسه يجتر ذكرياته وهو ينظر الى النجوم ، اتفرغ أنا لذكرياتى أحيانا ،وأحيانا أخرى أشغل نفسى بالتطالع البهم محاولا الاستفادة بمعلوماتى العلمية فى الكشف عما فى نفوسهم ، وفى احدى الأمسيات قررت شغل فراغى بعد النجوم ولكننى احسست بألم هائل فى رقبتى فلم أعاود ذلك مرة أخرى .

كنا فى أيامنا الأولى بالمعسكر ، حينما أتوا بنا الى هذه المنطقة نحمل كميات كبيرة من الاقاصيص وحكايات الحب ، والكثير من القفشات والنوادر والنكات ، فوقها ذخيرة حية من الأحاديث السياسية والاجتماعية والدينية وما الى ذلك من أمور الحياة ، ولكن ، بمرور الأيام تناقصت هذه الحصيلة ، وفرغ كل منا من أقاصيصه ونوادره وملحه بالاضافة الى سرد تاريخ حياته ، ثم جفت ينابيع أحاديثه ، وفقد كل منا ما يملكه من كلمات ، حتى أصبحنا لا نجد ما نتحدث فيه ، والأيام تمر والاجازات كل شهر مرة واحدة تأتى عربات (الجيب) تحمل الأوامر والطعام والعينات بعد تحليلها وتعود بالخطابات الى أهلينا وعينات أخرى للتحليل وموظف وعامل محظوظين كتب لهما التصريح بأجازة ثلاثة أيام ، وبعدها يعودان محملين بأنواع من الطعام لا نذوقه الا مرة كل شهر وبخطابات وأوامر أخرى جديدة ، ويظل المحظوظان يتحدثان عن مغامراتهما فى المدينة ثلاثة أيام ، يصفان ويحللان ويعلقان على كل ما مر بهما حتى يفرغا ، وبعدها يعود الصمت ويرجع كل منا ينظر الى داخل نفسه مرة أخرى .

وهذه المرة ، كان مجىء هذا الكلب الأبيض الصغير حدثا فريدا فى عالمنا فتعلقت به انظار الجميع ، وأصبح الكلب النجم اللامع محط اهتمامات الجميع ، وبطل العديد من الأقاصيص ، ولكن لم يستمر كل هذا الا سويعات عرفنا فيها كل شىء ، وفقدت الحقيقة بعدها طعم الانصات والانبهار ، وذابت أطراف القصة فى فم راويها . زميل جديد انضم الى المعسكر اصطحب معه كلب الأسرة المدلل ، وفرحنا بانضمامه ، فهو ولا شك يحمل ذخيرة من الأحاديث والقصص تكفينا لعدة ليال ، وازداد سرورنا حين عرفنا (صفوت) فى أول ليلة قضاها معنا انه كما وصفه طلعت « هوسه » .

بالفعل ظهر (صفوت) ، كما قال (طلعت) : خفيف العقل والحركة ، يحمل أشياء غريبة ، ليس لديه فكرة ، ولو قليلة عن العمل هنا ، كل مايحمله ويعلمه مجموعة كبيرة من الأسئلة ، وقدرة هائلة لسرد القصص ، سعدنا به وتمنينا له طول البقاء معنا .

وأصبح صفوت وكلبه المدلل ، الذى اطلقنا عليه ، احتراما لصاحبه اسم (صافى) تميمة البعثة ومجال حديث أهلها وموضع اهتمامها ومركز حديثها .

وفى الليلة الثالثة من مجىء (صفوت) الى المعسكر ، وبينما أنا جالس أمام الخيمة كما تعودت أن أفعل ، وبعد أن ذهبوا جميعا الى فراشهم ، واذا بالكلب يتسلل من خيمة صاحبه ويجرى مسرعا مذعورا وكأن شيئا أخافه ، فخشيت عليه من الضياع فى الصحراء ، وأسرعت خلفه أناديه ، ولكنه لم يتوقف سوى لحظات ينظر خلفه ثم يجرى مرة أخرى ، وأنا أتعقبه ، فرحا بالتجربة التى ستجعلنى بطل قصة أرويها لهم فى اليوم التالى، ويمكننى ان أضيف اليها بعض الحواشى تجعلها تبدو

قصة رائعة ونادرة فكهة . واحسست فجأة بأن الجو اصبح باردا مرة واحدة وأن الأرض تهبط والرمال اصبحت اكثر تماسكا ، فتنبهت الى نفسى ونظرت خلفى لأجد أنوار المعسكر تبدو وكأنها فى منخفض لايظهر منها سوى شعاع من الضوء ، وسقط قلبى وارتفع شعر رأسى من الخوف ، وكأن الكلب هو الآخر انتابه نفس الأحاسيس . فتوقف عن الجرى واقترب منى قليلا وأخذ يتلفت وهو يصدر أنينا مكتوما ، ويهز ذيله ، ويدير أذنيه فى كل اتجاه ، ووقفت حائرا . ماذا أفعل ؟ وأنا اعلم ان هذه المنطقة مليئة بالكثبان التى تبدو أحيانا كالهلال وأحيانا كالدوائر ، وبعضها مملوء بالأفاعى والحشرات السامة والسير فيها لغير المدرب يعرض المرء الى عواقب سيئة . والمعسكر يبدو وكأنه فى جانب آخر من الصحراء ، ومن كثرة وجودى فى الصحراء ومن كثرة سماعى لقصص الضياع فيها ، انتابنى شعور حقيقى بالضياع والموت ، وتصورت أن الوصول مرة اخرى الى المعسكر ضرب من المستحيل لايمكن تحقيقه ، وتذكرت البعثة الألمانية بأفرادها الستة الذين ظلوا يضربون فى متاهات الصحراء حتى اكلتهم رغم كل الجهود التى بذلت للبحث عنهم ، وآخرون غير البعثة الألمانية ، راحوا ضحية ذلك الوحش الأصفر الممتد الى ما لا نهاية ، وفكرت فى الصراخ ربما يسمعنى أحدهم ، ولكن الصراخ سيتبدد قبل أن يصل اليهم ، وفكرت أيضا ، فى السير مسترشدا بشعاع الضوء المنبعث من المعسكر ، ولكن الكثبان الرملية تبدو عالية والدوران حولها يعرضنى الى البعد عن المعسكر اكثر . واعتصرت الوحدة والخوف أعصابى وتخيلت أمى وهى تبكى لدى سماعها خبر فقدى فى الصحراء ، وخالى وهو يواسيها ثم أقاربى وأصدقائى وهم يتأسفون من أجلى . وأنا ، جثة هامدة ملقاة للطيور والأفاعى والحشرات تنهش لحمى وتعض اطرافى ، ونمل الصحراء وهو يمد خطا من الشغالة عبر صدرى فرحا بتلال

الطعام ، هكذا بسرعة يموت الانسان وهو مازال فى السابعة والعشرين من عمره ، لم يحقق شيئا لأهله ، هكذا بسهولة مؤلمة ، بعد كل الصعاب التى تخطاها ، وبعد أن يعتقد ان له الحق فى أن يأكل بعض الثمار التى نبتت بفعل حبات عرقه ، يموت ، ويموت فى الصحراء لايبقى منه سوى هيكل عظمى قبيح ، محطم ، حطمته الرياح وحيوانات الصحارى ، وربما يمر من هنا بعض الباحثين عن الماء أو الآثار أو البترول فيروا عظامى - ويمسك بها أحدهم يتأملها ، يعتقد مرة انها عظام وحش ، بل وحش من وحوش ما قبل التاريخ . ويرد الآخر معترضا ، فهى مجرد عظام كلب أو خروف أو عجل أو شىء من هذا ولكن الأول لا يقتنع تماما فيدس عظمة من عظامى فى حقيبته ليفحصها فيما بعد فربما استطاع أن يثبت ان أصل الانسان خروفا .. وهكذا تتحول عظامى الى أشياء غريبة ، الى تحف علمية يحرص عليها هواة الصيد وعلم الحيوان ! أنا ! ذاتى هذه التى تتحرك وتتمرد وتبكى وتحلم وتتمنى ، بعد لحظات تصبح لاشىء ، هذه الأنا تتبخر وتتحول الى مجرد عظام غريبة الشكل مدفونة فى الرمال تحركها العاصفة وتلعب بها السيول والأمطار !

صحوت من أفكارى التى ذهبت بى الى مكان سحيق مظلم ، على نباح الكلب وهو يعلو فى تردد خائف ثم يضرب رأسه فى قدمى وكأنه ينبهنى ، ونظرت حولى أتطلع الى ما لفت انتباه الكلب ، فوجدت فتاة بملابس البدو تتقدم نحوى ، وسرعان ماقفزت الى ذهنى صورة الجنية التى كنا نقص عنها الكثير ونحن صغار ، وتذكرت ، بالذات ، قصة الجنية التى ركبها عم مغاورى . وكلما تقدمت الفتاة البدوية نحوى ازداد خوفى وحاولت جاهدا أن أتذكر كيف استطاع عم مغاورى ترويض الجنية حتى استطاع ركوبها ، ربما لو تذكرت جيدا مافعله لفعلت مثله ولاستطعت عن

طريق الجنية إن أعود الى المعسكر ، ولـكن ذاكرتى خانتنى ، رغم انى متأكد أن (محمد الصياد) فى الليلة التالية أكمل لنا قصة عم مغاورى والجنية .

ما أشد سذاجة الانسان سواء أكان فى السابعة أم فى السابعة والعشرين ، فلم تكن الفتاة التى تقدمت جنية أو شىء من ذلك بل (سالمة) ابنة أحد الأعراب الذين يعيشون حول معسكرنا عرفتنى هى قبل أن أتبينها ، ورغم أننى أخصها ببعض الحلوى والعلب المحفوظة فلها عيون خضراء جميلة ، وشعر يبدو من تحت طرحتها فاحم السواد ، وجسدها يفرض تناسقه ورشاقته رغم ملابسها السوداء الكثيرة ، وحينما اقتربت منى صاحت فى دهشة :

ــ ماذا تفعل هنا ؟

واضطربت قليلا ، لقد كنت أفكر فى جواب معقول لا يجعلنى أظهر أمامها بالرجل الخائف ووقع نظرى على الكلب وقلت بسرعة :

ــ انظرى .. لقد أحضرنا كلبا صغيرا ..

وكأن قصة الكلب لم تعجبها أو أن الكلب نفسه لم يثر اهتمامها فقالت فى صوت رقيق الى حد ما :

ــ هذه الناحية غير آمنة .. لازم تعود للمعسكر .

ومرة أخرى خشيت أن أقول لها اننى لا أستطيع العودة لأننى لا اعرف الطريق ، فلم أرد وتظاهرت بعدم سماعى لكلامها ، ونظرت هى الى مرة اخرى قبل أن تستدير عائدة وقالت :

ــ مع سلامة الله .

ــ سالمة ..

صحت فيها بقوة خوفى من ان تتركنى مرة أخرى وحدى مع أوهامى ومخاوفى فالتفت الى وبريق يشع من عينيها ، أهاج فى نفسى شيء ما رغم ضآلة اللحظة ، وتقدمت نحوى وهى تقول برقة أكثر :

ـ نعـــم ..

وارتفع الدم فى عروقى بسرعــة شعرت بهــا ، وأحسست بنشوة ، ونسيت الأمر كله ، هذه أول مرة أنظر فيها الى سالمة كأنثى ، ولأول مرة اسمع منها هذا الصوت الرقيق الأنثوى الذى يختلف عن صياحها طول اليوم ، فهى معروفة بأنها خشنة الطبـع تعاملنا معاملة الغرباء الذين لا أمان لهم .. ولا يجرؤ أحد العمال التحدث معها فى أمر من الأمور ، وأثارتنى هذه الرقة وأهاجت فى شعورا حاولت ان أتجاهله خلال المـدة التى قضيتهـــا فى الصحراء لا أذهب الى المدينة الا أياما معدودات لا أرتوى فيها ، اعود بعدها الى الصحراء أشد ظمأ . وحينما سمعت صـــوت (سالمة) ورأيت بريق عينيها تفتح أمام عقلى أشياء كثيرة وتخيلتها بين ذراعى ، ينبوع من الحنان والحب أرتوى منه حتى أشـــبع واكتفى . وذهب بى خيالى كل مذهب ، ولكنــــها أيقظتنى من تخيلاتى بسؤالى عما أريد ، فأفصحت عن عدم معـــرفتى طريق المعسكر ورجوتها أن ترشدنى . فرمتنى بنظرة طويلة وتنهدت ثم سارت بجوارى حتى المعسكر وهى تنظر الى بجانب من عينيهـــا وكأنها تشعر أن قصة عدم معرفتى طريق المعسكر ، قصة كاذبة اخترعتها لكى أسير معها ، فظلت منتبهة لأى حركة تصدر منى ، تنظر للطريق بعين وتنظر الى بالأخرى . وأنا أراقبهـــا وأراقب الكلب الذى سار بجوارى فى ذلة بعد أن عرف أنه لا أمان له الا فى حماية أهل المعسكر .

وعدت الى خيمتى وأنا أفكر في (سالمة) وفي عيون سالمة، وجسد سالمة،ولا أستطيع تذكر كل الأحلام التى عشتها فى نومى معها. فأنا تارة معها في خيمة زرقاء وسط الرمال الصفراء نشرب ونأكل ونتعانق ، ومرة أخرى ، معها فى احدى الملاهى الصاخبة فى باريس ، رغم أننى لم أذهب الى باريس مطلقـا ، ولا أعرف الفرق بينها وبين ملاهى الجيزة ، ومرة أخرى ، أرانى معها فى الجنة أو مايشبه ذلك نقطف أزهارا لها رائحة عطرة ، ثم أرانى بجوارها على حجر معبد مكسيكى والكاهن يهم بانتزاع قلبينـــا ليقدمهما قربانا للآلهة .

نعم ، لا أستطيع تذكر كل هذه الأحلام التى عشت فيها مع سالمة أقبلها وآخذها بين أحضانى وأطير بها الى السماء ثم أهبط بها الى قاع المحيط ، حتى صحوت من نومى .

- ٣ -

عندما ناداني عبد الصمد الطباخ ، ظننت أنني مازلت أحلم ، فأنا أحيانا أحلم قبيل استيقاظي من النوم ، أي في الساعة التي بين الصحو والمنام وتمر حوادث الحلم أمامي وكأنها شريط متتابع من الصور أشاهد نفسي وأنا أتحرك وأجادل وأضحك في الحلم ، ومع هذا أحس بوجودي الحقيقي على الفراش نصف مستيقظ ، بل ومنتبها الى حد ما للأحداث التي تجرى حولي، ولذلك حينما ناداني عبد الصمد ، هذا الرجل العجوز الأسمر، أحسست بكثير من الضيق لأن صيحاته المتكررة باسمي سوف تجعل الأحلام تطير من أمام عيني وتفر من خيالي ، وأصحو لأجد الرمال المتكررة في كل مكان ، في حذائي وفي عيني متشابكة ومختلطة بشعيرات رأسي ، تثير الضيق والنفور ، وحاولت جاهدا أن أصم أذني عن النداء ولكن محاولاته الملحة جعلت الأحلام تهرب مني وأسفت على فراقها ، وكانت أحلاما جميلة حقا ، فقد كانت (سالمة) ترقص برشاقة ، والموسيقى تنبعث من مكان مجهول والرمال تحت قدميها تتلون ، مرة حمراء قانية ومرة أخرى زرقاء في لون مياه المحيط ثم تعود الى صفرة الرمال ، وسالمة تتراقص في دلال وتقترب مني حتى أكاد ألمسها ثم تفلت مني هاربة لتعود من جديد وتزيد من قربها فتثير في القلب لهفة ، وفي اقترابها وبعدها أتحرك أنا على فراشي ، وعبد الصمد يلح في النداء ،

بتكرار متماثل وبنغمة واحدة مملة ـ جعلتني أنفر واقفا بغضب صائحا فيه :

ـ نعم ؟

ـ نعم الله عليك ، الفطور ..

هذا الرجل الطويل مثل نخلة في بلاده ، النحيف مثل عود حطب على سقف داره يثير في نفسي نوعا من القلق المبهم ، ويبادلني هو الآخر هذا القلق ، ويعلن دائما عن غضبه وعدم رضاه بادارتي السيئة لأمور الاعاشة في المعسكر . ناولته بسرعة مفاتيح صناديق الطعام وأنا مازلت تحت تأثير تلك الأحلام المتلاحقة التي سيطرت على نومي طوال الليل ، وجعلتني أصحو في كسل وأشعر بارهاق شديد ، فلم يصدق الرجل هذه السهولة في أعطائه المفاتيح والتي لم يتصورها من قبل ، ونظر الى في شك دون أن يتحرك . وكان لابد أن يذهب هذا الرجل حتى أتفرغ أنا لاسترجاع احلامي ، واستعيد احساسي بطعم السعادة مرة أخرى ، ولكنه ظل واقفا كتمثال لرجل نوبي عجوز . فلم أملك الا أن أذهب معه .

وبطبيعة الحال ، حال المعيشة في الصحراء ، نضطر الى الغاء الكثير من العادات التي كنا نقوم بها في المدينة ، مثل الاستجمام اليومي وحلاقة الذقن واستعمال فرشاة الأسنان والتطلع الى المرآة لاعطاء ملابسنا لمسة هندسة لتبدو في غاية الرقة والاناقة ، أو استبدال ملابس بأخرى وما الى ذلك ، فهذا هو (الشورت) ثم قميص نصف كم كالح اللون ونعل جلد مما يستعمله البدو يسهل الحركة والسير على الرمال . وكان ما يضايقني حقا هو نظارتي الطبية فهي أحيانا تفقد مني في الرمال ، أو يقوم أحد الزملاء الخبثاء باخفائها لمجرد احراجي أو للضغط على لأزيد له من كمية الطعام ، وهي دائما ـ تلك النظارة اللعينة ـ يعلق بها رمال صغيرة متطفلة تجعل الرؤية من خلالها

صعبة واحيانا مستحيلة ، والأكثر من هذا عندما ينتصف النهار وتعلو الشمس ويسيل العرق ، الملح المزوج بالرمال على الوجه، تصبح النظارة الطبية ـ بالنسبة لى عذابا مؤلما يزيد أعصـــابى اشتعالا ، وتنزلق وأرفعها لتنزلق مرة أخرى لأعيد الكرة ممـا يجعل وجهى يلتهب وعيناى تدمعان من الألم ، وحبـات الرمال تنغرز اعلى انفي وحول أذنى . ولـــكن ، هـذه الملعونة لا يمكننى الاستغناء عنها ولا يمكننى الرؤية السهلة بدونها وهذا ما جعلنى أتحمل كل مضايقاتها .

وأخذت أمسح النظارة بالمنشــفة مرة وبالقميص مرة اخرى حتى أمكننى ، بعد جهد ـ وعبد الصمد ينظر الى ـ أن البســها وأذهب معه لاعداد الفطور لأفراد المعسكر .

أثناء الفطور ، كان الحديث يدور مرة حول أحد الاتجاهات السياسية ثم يلتف حول طرق تحسين المعيشة وتحديد النسل ، ثم ينقطع فترة ليعود حول النساء وهو المجال الوحيد الذى يحظى بالاجماع ، فكلنا من الرجال الذين نزحوا عن المدينة منــذ فترة طويلة الى حد ما ، وكلنا نشكو الحاجة اليهن ، وكما هى العادة ، جرى الحديث دون جدل أو نقاش ، مجرد القاء كلمات أو قفشات تثير الضحك لأن لها أكثر من مغزى ، وفى أثناء الحديث نظر الى (بهجت) يسألنى :

ـ ماذا كنت تفعل أمس ؟ كان معك أحد الأشـــخاص .. والكلب !

ونظر الى جيدا وهو ينطق بكلمة (أحد الأشــخاص) وكأنه يقول : كانت سالمة وأنا أعرف هذا ولكن سأحفظ سرك . وترددت فى الرد عليه ، فهو ضيق الأفق والصدر ، والحديث معــه غير مضمون النتائج ، كما أننى لا أميل اليه كثيرا ، وهو يشعر بهــذا

وكثيراً ما كان يحرجنى بالأسئلة فى الاجتماع الأسبوعى عن الطعام والأغطية وجهاز الراديو المعطل ، وأنا دائما حريص على الرد ، بل أحيانا ما أشركه فى حل بعض مشاكل المعسكر حتى يشعر بما أشعر ويرى الجهد الذى أبذله لكى أقدم له الطعام وكل ما يحتاج اليه ، بينما يجلس هو طول النهار بجوار بريمة الحفر حتى يحتاجوا اليه ونادرا ما يحدث ذلك ولست أدرى ما فائدة كاتب حسابات فى معسكر للبحث عن المياه الجوفية ؟

ــ أنت أدرى منى بالأمر ..

وتركت الطعام ، وأخذت أجول ببصرى بين المجموعة ولاحظت أنهم لم يتبينوا كلمات (بهجت) وأحسست بأن المسألة خطرة وليست بسهولة الأحلام . فسالمة هى الفتاة الوحيدة الناضجة والتى تصلح للمعاشرة فى المنطقة التى نعمل بها وأسرتها التى لا تزيد عن عشرة أفراد اما رجال كبار فى السن أو أمها العجوز وأخوتها الصغار من بنات وصبيان ، وعلى هذا فوجودى معها فى ساعة من الليل سواء أكانت هذه الساعة متأخرة أو متقدمة من الليل يعنى أشياء كثيرة وأنا بالذات أعنى للأسرة البدوية الكثير ، أولها اننى أملك طعام المعسكر وأتحكم فيه وأتصرف بحكم عملى : فى كمياته والأسرة تعيش متنقلة حولنا وتقيم بجوار معسكرنا دائما .

واحسست بالخوف ، يتخلل كيانى فأشعر بالبرد ويذكرنى بالماضى ، فقد طردت من عمل سابق بسبب امرأة ، ونقلت من عمل الى آخر بسبب امرأة ، وهذه المرة ستكون بسبب امرأة أيضا وضاقت نفسى واضطربت أعصابى ، وأخذت ألهث واحساس بالفشل يعود مرة أخرى ليظهر فى حياتى ويهدد مستقبلى ، وأفكار مختلطة تروح وتجىء دون ترتيب ، وجود فتاة مع أحد أفراد البعثة يعنى أشياء كثيرة ، منها تهديد برنامج الأبحاث عن

المياه الجوفية بالتوقف ، فهذه الفتاة ابنة أسرة بدوية ، والأسرة تنتسب الى قبيلة متناثرة فوق رمال هذه الصحارى وتسيطر عليها وشرف الفتاة عندهم يساوى أحيانا خمسة وعشرون جنيها وأحيانا أخرى يساوى خمسا وعشرين رأسا من رءوس الأفندية، ولا أدرى أى الحلين سيكون ؟ وسواء الحل الأول أو الأخير فالأمر سيجعل القبيلة تغير نظرتها الى وجود هؤلاء الأفندية فى أراضيها .

ذهب كل الرجال الى أعمالهم ، وبقيت وحدى جالسا تحت خيمة المطعم أقلب كوب الشاى الفارغ بين يدى وأفكر فيما يجب أن أفعله !

نعم ، (سالمة) جميلة ولذيذة واحتوائها بين الأحضان يساوى أكثر من خمسة وعشرين جنيها بل أكثر من مائة ، ولكن لست متأكدا من هذه النتيجة . فربما يحكمون بقطع الرءوس واسالة الدم !

وتذكرت حادثة رواها صديقى (ابراهيم) الذى كان يصاحب احدى البعثات الأمريكية التى تنقب فى الصحراء للبحث عن نوع من فصائل الحشرات ، ففى احدى المرات عسكروا بجوار احد النجوع وهناك التقى باحث منهم بفتاة بدوية واستطاع أن يغريها بطريقة ما ونال منها وذهبت الفتاة واعترفت لأبيها الذى ذهب بدوره يشكو الى شيخ القبيلة ، ودعى شيخ القبيلة الى اجتماع سريع وأحضروا أمامهم الباحث الذى ارتكب الحادث . وظل الرجل يرتعد من الخوف ومن حوله شيوخ القبيلة فى جلستهم يتدارسون الحادث فى غضب ، وأفراد البعثة التى كانت مكونة من ثلاثة من الأمريكيين وصديقى المصرى فى حيرة من أمرهم ، وحاولوا الاتصال بمقر قيادتهم ولكن لا فائدة ، بحثوا عن حل لينقذهم من هذا البلاء ، واخيرا وجدوا انه لا مفر من

قبول حكم مجلس القبيلة . ودارت مداولة شيوخ القبيلة ثم حكموا عليه بغرامة مالية قدرها خمسة وعشرين جنيها والطرد من المنطقة كلها وتحريمها عليهم .

ورغم أن هذه القصة سمعتها من زميل اشتهر بالصدق ، الا انني لم أصدقها تصديقا كاملا وظلت تدور فى عقلى بين التصديق والتكذيب . وأحيانا أفكر فى سهولة الاحتيال على امرأة نظير هذه الجنيهات . ولكن ما كان يقصه (عبد الصمد) من أنهم يقتلون عشرة رجال وأحيانا أكثر ثمنا لشرف الفتاة البدوية جعلنى أفكر فقط ، والآن أنا متهم أمام (بهجت) ، وهذا الرجل ثرثار بطبعه وسوف يذيع اتهامه ، وأصبح بطلا لقصة غير حقيقية :

ـ ماذا أفعل ؟

صحوت من تأملاتى على صوت (سالمة) تناديني فى نبرة رقيقة أو أعتقدت أنها كذلك ـ ونظرت اليها ، لو أن الأمور تسير كما تسير الأحلام ! ، ونسيت خوفى وخطر على بالى أن أسألها ، ماذا كانت تفعل أمس عندما قابلتنى ؟ ولكن تحرجت ، ربما اجابتنى بطريقة جافة تجرح شعورى وربما كانت تفعل شيئا لا تود أن تقوله ، ولكن كيف رآنى بهجت ؟ وانتابنى شعور بالغيرة أو تكون سالمة على علاقة بالفعل مع أحدهم ؟ وقفز كلام بهجت أمام عينى ، ربما يكون هو الذى له علاقة ، ولكن بهجت لا يصل الى هذه المرحلة ، سالمة تحتاج الى عاشق من نوع آخر ، وهى اما تحتاج الى ، فأنا أمثل الجانب المسالم ، واما تحتاج الى نوع آخر مثل طلعت بمنظره الوسيم وجسده المنسق ويمثل جانب الفروسية ويثير خيال فتاة تعشق الرجل القوى بطبيعة حياتها ، ولكن بهجت ، هذا القصير الدميم المتطفل لا يعجب سالمة ولا يثير خيالها .

وفى خلال حديثى معها ، وكنا نتحدث عن الـكلاب ، لاحظت أنه لا يوجد أحد على مقربة منا ، وخيمة المطعم خاليـة الا من الموائد الخشبية المغروزة فى الرمال وكأنها قبور ، وريح خفيف تبعث الدفء فى قلب الرمل الممزوج بالندى ، وفكرت أن أقبل سالمة ، فنحن وحدنا تقريبا وهذه فرصـة نادرة وربما لا تعوض فى المستقبل ، ولكنى تريثت بل وتظاهرت بعدم المبالاه واخـذت هى تقص احدى الحكايات ، وتذكرت أمى .

فى بلدتنا ، بعيدا عن هنـا ، بجوار النهر ، وفى حجرة من حجرات بيتنا وسط كتل البيوت السوداء المتراصة فى تكاسل ، والقمر يرسل شعاعه الواهن فيصطدم بأسقف السطوح وينكسر ويقفز الى الحوارى راسما مربعات من الظلام واخرى من مربعات النور الباهت يخترقها ظلال أعواد الحطب المدلاة من أسـطح المنازل ، وعلى فراشى وبجوارى جلست أمى تقص (الحـدوته) تقول كلمة ثم يداعبها النوم ولكنى أسرع وأنبها حتى تكمل القصة أو الحدوتة حتى اذا فرغت منها طالبتها بالمزيد ، وأظل هكذا أزود النوم عنها حتى تقص على أكثر من حدوتة ويغلبنى النوم .

واختلطت فى ذهنى الصـور ، صـورة أمى وهى تروى لى الحواديت ، وصورة سالمة وهى تروى لى احدى الحكايات ، أمى سمراء وسالمة كذلك ، أمى نموذج صغير دقيق لامرأة اسبانية ، وسالمة تبدو حفيدة رقيقة ضئيلة لاحدى النساء الأسـبانيات ، وكلاهما تتحشم بالملابس السوداء ، وكلاهما أيضا يتحدث برقة .

وسالمة تكمل الحكاية ، وتسألنى بعض الأسئلة لتشـوقنى حتى أسمع نهاية القصة وأنا لا أجيب ـ فقط أبتسم ـ أبتسم لسالمة ، وابتسم لأمى .

لا يا أمى لا تظنى أننى نسيتكم تماما ، أنا فقط أخاف منـكم وعليكم ، ما أشد الآلام التى سببتها لكم ، كم تحملتم فى سبيلى

وأنا الآن ، بعد كل هذا لا أستطيع ان أقدم لكم شيئا حتى الأمل ، لا أستطيع أن أقدمه مجرد سراب أمل . سامحينى يا أمى .

كانت سالمة قد فرغت من القصة ، وددت أن أقص عليها احدى الحكايات أو الحواديت فالحواديت فى القرى كثيرة وأنا مازلت احفظ منها حصيلة لا بأس بها . وللحواديت الريفية طعم جميل يختلف عن أقاصيص البدو ، ولكن تلك الرغبة لم تتحقق ، ولمحت (طلعت) بقميصه المفتوح دائما من الأمام يقترب منا ضاحكا ، كنت أود أن أقص على سالمة قصة الجنيه وعم مغاورى وكيف ركب عم مغاورى الجنية واستخدمها فى الزراعة حتى أصبح من اثرياء المزارعين فى قريتنا وذهب الى الحجاز وعاد ليحمل لقب الحاج مغاورى بدلا من عم مغاورى . ولكن طلعت ، حضر وراح يداعب سالمة بجراة وهى ترد عليه بصوت خشن — وكلما ردته سالمة زاد هو من قفشاته حتى اننى أحسست بأن الموقف ليس معى ، وأن طلعت بجراته يعجب سالمة اكثر ويتلائم مع طبيعتها ، أما أنا فليس لى معها نصيب .

وعندما وصلت الى هذا القرار ، انسحبت مدعيا بأننى ذاهب لأرى شيئا هاما ثم أعود .

لو كانت الحياة فى جمال الأحلام وسهولتها ؟ !!

- ٤ -

في أمسية ذلك اليوم وقفت في صباحه مع سالمة تحت خيمة المطعم في المعسكر ثم مجيء طلعت وما أحدثه في نفسي هذا المجيء ، كنت حزينا ، محسور الفؤاد ، أشعر بخيبة أمل وبضآلة لا حد لها ، وباحساس بالمرض والتفاهة ، وخوفي من طلعت أن يسلبني سالمة وجلست بجوار الحفارة على كومة قش الأرزالذي نستعمله في تسيير الماكينات على الرمال . أفكر في كل ما حدث، وكان ما يشغلني هو الاحساس بأنني ربما أكون قد سقطت في الحب ، فاذا كان هذا صحيحا وليس مجرد تخيلات تدفعها الحاجة الى الجنس الآخر . لأصبح الأمر شيئا مؤلما ويستحق المراجعة والبحث عن حل سريع ينقذني . ولكن يبدو أن الأمرغير هذا ، حقيقة أن سالمة رقيقة وجميلة ولكنها ليست المهبط المناسب للتمتع بالحب وطلعت ، ما الذي يجعلني أشعر بالخوف منه ومن منافسته ، ولجأت الى خيالي أبحث فيه عن مأوى لخوفي ، ويحملني الى مجال أفسح وأرحب . وهناك في بحر الخيال الواسع المدرب من الصغر أحقق ذاتي وأحلامها .

وفكرت في حدوتة عم مغاوري والجنية ، ورحت أتعقب في ذاكرتي الخيط الذي يوصلني الى استكمال نهايتها . ورغممرور عشرين سنة على سماعي لهذه القصة لم تذهب تفاصيلها مع ما ذهب من ذكريات الطفولة وأحداثها .

نعم ، مازلت أذكر بقية الحكاية . فقد نظر عم مغاورى الى الجنية وهى متنكرة على هيئة حمار مسرج ثم عرف حقيقة أمرها، وتذكر أنها تغرى من يراها حتى اذا هم بالاقتراب منهـــا هربت منه ليسرع مرة أخرى خلفها يطاردها وهى تبعد تارة وتقتـــرب أخرى ، حتى اذا تمكنت منه ترديه فى غياهب جب الساقية أو فى أعماق النهر ، وأدار عم مغاورى المسبحة فى يده وراح يسبح ربه ويسأله البصيرة ، ويستعيذ به من شر خلقه ومن جنيـــات البحور ، والجنية تتظاهر برعى العشب النـابت على الجسر فى محاولة لزيادة التنكر والتمويه ، وأتاه الهام بأن يسرع الى ظهرها ويغرز فيه (مسلة) فاذا تمكن من ذلك أصبحت الجنية ملكا له يفعل بها ما يشاء وفى صورتها الموجودة عليها ، ولحسن الحـظ وجد بجواره (مسلة) كان يخيط بها بعض (المقاطف) فاستجمع شجاعته وردد من القرآن ما تيسر له وهب واقفـــا ، ولم تكن الجنية على علم بما يضـــمر لها ذلك الرجل الريفى فلم تسرع بالهرب ، بل تمادت واقتربت منه لتغريه بركوبها ، فتمـكن عم مغاورى منها وغرز (المسلة) بكاملها فى ظهرها حتى صـــاحت متوجعة من الألم وبكت وتوسلت اليه ودموعها تسيل بغزارة ملأت بئر الساقية ولكن قلب عم مغاورى لم يلن لها ونهرها قائلا :

ـ ستظل (المسلة) فى ظهرك حتى تمكنينى من تعلية الجسر ، وتسلم الأرض من الغرق وكذلك تساعديننى فى أعمال الحقل .

ولما كانت للجنيات القدرة على التحدث بكل الألسنة فقـــد صاحت متوسلة الى عم مغاورى :

ـ أرجوك ، ارحم أطفالى الصغار ، لقد تركتهم فى قاع النهر وهم ينتظرون عودتى .

ـ لا ، ليس لك قلب رحيم ، وانت لا تظهرين للناس الا رغبة

منك فى هلاكهم وسرقة أطفالهم ، ولن اخلصك من (المسلة) الا بعد أن تقضى لى حاجتى .

وسحبها من أذنيها ، غير عابىء بدموعها وتوسلاتها ، وأحضر لها لجاما من سلاسل الحديد ثم أرغمها على أن تقضى طوال الليل فى تعلية الجسر بالأتربة وتمكنت الجنية بالفعل من تقـوية الجسر وتعليته وأصبح قادرا على حماية أرضه وأرض الجزيرة كلها من الغرق بمياه الفيضان وكان هذا الأمر قد أخذ منها حتى الفجر ، وحينئذ تقدمت الجنية من عم مغاورى ، وأعطته خصـلة من شعرها ورجته أن يخلصها من (المسلة) لتذهب وترى صغارها طوال النهار فاذا جاء المساء عادت اليه ثانية وأقسمت له أن فعل فيها هذا الجميل لظلت طوال حياته خادمته الأمينة المخلصة ، تدير له الساقية ، وتحرث الأرض ، وتسمد الزرع ، وتحمل المحصول الى البيت ولفعلت بمقدار ما يفعله مائة رجل من أقوى الرجال ، وأوضحت له أن خصلة الشعر هى الضمان لصدقها وانهت كلامها بقولها :

ـ وان أخلفت وعدى تستطيع أن تلقى بخصلة الشعر هذه الى النار لتحترق واحترق أنا معها ، وأتلاشى من الوجود ، وتنزل اللعنة بأولادى من بعدى .

وأحس عم مغاورى بصدق حديثها ، وقال فى نفسه ، انها قامت بعمل كان يتطلب أياما وأياما لانجازه ، وما كنت أقوم به وحدى لولا معونة هذه الجنية .

وقرر أن يتركها حتى ترى أطفالها ، فهو أيضا له أطفال ، ويشعر بما يشعر به الآباء نحو أبنائهم .

وحمدت الجنية له هذا الصنيع وبرت بوعدها له ، شاكرة له معروفه ، مظهرة امتنانها بجميله ، فقد كان يمكنه أن يسخرها

حمارا طوال عمرها ، ويحرمها من الحرية ومن رعاية أطفالهـــا الجنيات الصغيرات ، ومن التمتع بحياتها الطليقة فى أعمـــاق النهر ، وأصبح عم مغاورى ينتظر الجنيـة فى المســاء لتقوم له بالعمل على خير وجه وبسرعة .

ودارت الأيام وعم مغاورى تيسرت حاله وكثر زرعه ،وامتدت حقوله وانبتت العجيب من الزرع وأرسل أولاده الى المـدارس ، وذهب هو الى الحجاز عدة مرات ، وظل طوال حياته ميســورا فى ماله متدينا شاكرا لربه ، بارا بالجنية عطوفا عليهـــا حتى أعطاها خصلة الشعر ليطمئنها ولكنها ظلت على وعدها معه .

وهكذا انتهت الحدوتة الغريبة التى قصها علينا (محمـــد الصياد) ونحن جلوس على مصطبة ضريح (سيدى يوسف)،والتى ظلت عالقة فى ذهنى طوال الأعوام السابقة التى مضت ، وذهب معها الكثير من أحداث الطفولة ونسيتها الذاكرة ، ولكن حدوتة عم مغاورى قاومت عوامل النسيان حتى اســترجعتها فى هذه الأمسية .

وأثار تذكرى (للحدوته) أكثر من سؤال : هل يمكن أن أقابل جنية فى يوم من الأيام وتفعل لى مثل ما فعلته لعم مغاورى ؟وهل تستطيع الجنية أن تجعل ســـالمة تحبنى ؟ . أو أننى أكتفى بأن تساعدنى الجنية فى عملى فقط ؟ ولكن كيف تساعدنى الجنية فى عملى، وهو لا يعدو أن يكون عملا بسيطا حتىأن مشاكله رغم كثرتها تافهة ؟ ولصالح من تساعدنى الجنية فى العمل ؟ هل ستعطينى المؤسسة أجرا مضاعفا ؟ هل ستدفع بى ألى منصب أعلا ؟ لا أعتقد أن المؤسسة ستفعل شيئا من ذلك ، ولكن يجب أن أطلب الى الجنية أن تساعدنى فى أمور أكثر جدوى ، أســـتطيع أن أكون بواسطتها مهندسا كبيرا ، لا ليس هذا بل الأفضـــل ، خبيرا فى المياه الجوفية ، فتساعدنى الجنية فى أن أعرف أي المناطق

تخفى تحتها المياه ، فنحفر فيها الآبار،وهكذا دون عمليات البحث الطويلة المرهقة الباهظة التكاليف ، هنا خزان للمياه بعمق ثلاثة آلاف متر ، أحفروا هنا ثم هنا فاذا أمكن ذلك زرعنا هذه الصحارى ، وجلبنا العديد من الماكينات لتخرج الماء المخزون فى باطن الأرض ونروى به تلك المساحات الشاسعة من الرمال الصفراء الملعونة المكررة ، ولأمكن أن نعيد الى الصحراء مجدها الرومانى القديم وزرعنا القمح والقطن والفل والياسمين ، وكثر الخير ، وراجت الحياة ، وتغيرت معالمها فى الصحراء ، ثم تسكن سالمة منزلا أنيقا يليق بجمالها ، وأدعوها ــ بعد أن حققت ذاتى وصنعت لبلدى شيئا هاما :

ــ مرحبا بك يا سالمة ، فالقلب فى شوق لرؤياك .

ــ لقد أصبحت نجما عاليا فى السماء ، وأنا فتاة فقيرة بائسة مثل حبة رمل ملقاة فى قاع قناة صخرية .

ــ لا يا سالمة ، ليس مكانك قاع قناة ، أنت هنا فى القلب والروح .. أنت فى العين والفؤاد .. وكل ما فعلت هو من أجلك .

ــ من أجلى أنا ؟ يالى من محظوظة ، يالى من سعيدة ، ولكن هل تحبنى الى هذه الدرجة ؟ أخاف أن يكون الأمر عطفا ؟

ــ أنظرى الى عينى ، ماذا ترين ؟ انه الحب الأبدى ، ضعى يدك على قلبى ، هل تسمعين خفقاته وهى تردد اسمك ، ان قلبى يسبح باسمك فى كل لحظة ، ينادى بحبك ، يا حبيبتى السمراء والفاتنة .

ــ لا ، لا تقترب منى ، انى أسمع وقع أقدام ، ان هناك من يرانا .. أرجوك ...

ــ لا تخشى شيئا يا حبيبتى .. أنا هنا أحميك من كل شئ .

ــ لا . أرجوك . أتوسل اليك . ان هناك شخصا يرانا .

ــ أنا رئيس هذا المكان ، وأنا الذى صنعته .. من هــــذا الذى يجرؤ على أخذك منى .

ــ انه ...

ــ من ؟

ــ طلعت .

ــ ما الذى جاء بك الى هنا ؟

ــ قم وزع الأكل .

ــ الأكل ، لقد نسيت . آسف يا طلعت لقد غفوت قليلا .

كان الخيال قد شطح بى بعيدا ونسيت أن آمر عبد الصمد باحضار طعام العشاء ، ولم أفق الا وطلعت يجـذبنى من يدى ، ورحت اهز راسى لكى أبعد عنها آثار الخيال ولأعيــــدها الى الواقع ، ووقفت أنفض عن ملابسى ما تعلق بها من القش ،وطلعت يسألنى عما بى .

ولم أحاول أن أجارى طلعت فى حديثه واكلف نفسى عنـاء الرد على أسئلته ، والجبن جاهز وعبد الصمد يفتح العـــلب المحفوظة ، وتعليقات متقاطعة غير مترابطة من العمـال ، وافراد المعسكر والـكلب ينبح فى ضــــعف ، وبهجت يعبث فى أزرار الراديو ، وحسين يضع الطعام أمام كل فرد ولا أحد ينظـر الى الطعام .

الجبن يبدو كأن لا طعم له ، به ثقوب مفتـــوحة مثل أفواه أصنام رديئة الصنع ، واللحم المحفوظ تفوح منه رائحـــة الملل والنفور كتل صفيرة حمراء متماسكة فى حزن ، ومائدة طويلة وأطباق نحيلة تحوى زيتونا اسود ، وفى خيال كل منـــا تدور حوادث عالم آخر ، عالم ينفرد به كل منا ويعيش فيه ليصنع منه حياته الخاصة التى لا يعرفها أحد ولا يراها أحد سوى الفـــرد ذاته .

- ٥ -

مضت عدة أيام ، طويلة مملة ، غابت ســــالمة ولم تحضر الى معسكرنا ، تجهم طلعت وأكثر من التدخين ،عشت فى ظلال من أحلام مبهمة تحيط بعقلى مثل غمام أسود يحجب الرؤية ولـكن تغير الأمر بعد وصول عربة البريد والتموين ، حملت رسائل المركز الرئيسى البشرى الى طلعت ، تحقق وجود الماء بوفرة فى المنطقة التى نبحث فيها ، ثم توالت بعد ذلك الأمور فى سرعة ، بدأت ادارة الشركة تهتم أكثر بالمعسكر وأرسلت الينا كميات جديدة من الخيام والمهمات والطعام ، وانشغلنا جميعا بفرحة النصر ، نرتب ونعـد وطلعت يدور حول المعســكر فى كبرياء العلماء وقلت مداعبــاته للعمال ، وتظاهر بالجدية .

وفى خلال هذه الدوامة من العمل نسيت نفسى قليلا ، نسيت احلامى ، تلاشت صورة الجنية أو على الأقل توارت عن ذهنى . وأحسست بالقدرة على فعل أشياء تستحق الاعجاب بدون الحاجة الى جنيات . نجح معسكرنا فى اكتشاف المـاء بهـذه الـكميات الهائلة ، وانعكس هذا النجاح على نفسيتى الى حد كبير ، فالتغيير الذى سيحدثه كشــفنا فى المنطقــة والذى ســيحيلها الى أرض خضراء يرجع الفضل فيه الى تلك الأيام والليــالى التى قضيناها هنا فى الصحراء ، ولاشك أننا سنشعر بالفخر على الأقل .

وبدأ المعسكر يعد العدة للانتقال الى منطقة أخرى أكثر تعمقا فى الصحراء ، ونخلى هذه المنطقة لمعسكر آخر يقيم روافع الميــاه

والمضخات ثم يجرى أبحاث زراعة المنطقة ، وهـذا ما يحدث فى كل منطقة وجدنا بها مخزونا للمياه الجوفية . وحينما فكرت فى الرحيل قفزت صورة سالمة فى مخيلتى سنرحل ونتركها ؟ أم أنها سترحل معنا ؟ ولـكن ما سر هذا الاهتمام وقد سـبق لنا التنقل من منطقـة الى أخرى ولم يسـبق لى الاهتمام بسـالمة أو أسرة سالمة ؟ ، وهم لا يعدون أكثر من أسرة بدوية ترحل خالفنا وتتعيش من حولنا ؟ . ولكن اليوم وهذه المرة ، السؤال يلح على عقلى : هل سيرحلون أم يبقون بجوار الآخرين ؟

وحركة الرحيل فى المعسـكر تدور بسرعة ، والعينات التى نرسلها يوميا الآن تؤكد نجاحتا وطلعت يزداد شـعورا بالمسئولية والأهمية ويزداد كذلك بعدا عنا وعن مجلسـنا ، ولمـا كنت أعزه واحبه رغم خيالاته عنه بالنسبة لسالمة ، الا اننى كنت دائم الحب والاعزاز له وازداد فرحى حينما وصله خطاب ادارة الشركة تخبره فيه بأن نتيجة أبحاثه قد حولت الى الجامعة للاستفادة منها ، وذهبت اليه أهنئه بهذا النصر العلمى ، وراعنى سرعة تحوله ، فقد أصبح مهذبا لا يميل الى المشاكسة المعتـادة منه ولا الى القفشـات التى كان يلقيها طوال النهـار حتى أننى نسيت ما كنت أود التحـدث فيه معه .

واحسست أن طلعت يبعد عنى وخطا خطوة الى الأمام ، بينما أنا جالس فى مكانى أحلم أحلام الصبية وصغار العقول ، وأحلم أيضا بسالمة ، الفتاة البدوية التى لا يربطنى بها رابط سوى حب جائع فى الصحراء ، طلعت عاش فى واقعه والتمس طريقا مشمسا وسار فيه . حقا ان أبحاثه جديرة بالاهتمام . فقـد عانينـا فى البحث عناء كبيرا ، كانت المواسير التى نرسلها فى الأرض بواسطة الحفارة ، عبر طبقات مختلفة من الأرض ، لا تصل أبدا ، وان دل البحث على وجود مياه بوفرة لا تقدر على رفعها ، كانت المواسير

تتآكل بفعل ما فى جوف الأرض من أملاح أو معادن أو ربما بفعل طبيعة المياه نفسها ، واستطاع هـذا الولد الشـقى . الحـديث التخرج أن يوفق الى حل للمشكلة وصـنع نوعا من المواسـير لم تتأثر وأعطتنا الماء والنجاح ، طلعت انتصر وأنا أخلق حولى سرابا ، أصنع حول عقلى غلالة من الضباب وأنسج حول خيمتى مجموعة من الأكاذيب سرعان ما أصدقها وأسقط فى شراكها ، ويبتعد عنى الركب ويتركنى الزمن معلقا بين السماء والأرض بشبكة أكاذيب واهيـة سرعان ما تأتى رياح الصـحراء المحملة بالأتربة والرمال وتطوينى فى أعماقها وأظل الى الأبد سجين هذه الشبكة الملعونة . وراعنى هذا التصور وتخيلت حياتى فارغة الا من مجموعة أكاذيب وخيالات وأحلام وقصص وهمية من الحب والعظمة والسلطان كلها مجرد أوهام أنسجها فى تلذذ وراحة ، وحينما تهب عليها رياح النهار تختفى تاركة حسرة فى القلب وصداع فى الرأس ، والحب . عديد من أقاصيص الحب تعيش معى ، أحببت كثيرا من الفتيات أحيـانا سـمراء وأحيانا بيضاء ، مختلفات المشارب والأمزجة متدرجات من ابنة بسلطان المغول الى ابنة شحات جوعان ، ومختلفات الجنسية ، هذه من الصين والأخرى من السـويد ، ثم من أعماق أفريقيا أو شمال الأرض وعمرهن أيضا مختلف ، فهذه فى العشرين والأخرى فى الأربعين أو بين ذلك ، ولكن كل هـذا مجرد أوهام ، أحلام ، خيالات لا تعدو أن تكون مجرد نسيج واه حينما أرتكز عليه تهوى بى . ولم تخرج تجـاربى العـاطفية فى الواقع منـذ صغرى عن فتاة فى السابعة عشر فقيرة ، أحببتها كل الحب أو ما تصورت أنه كل الحب ، وكتبت فى حبهـا الشـعر والزجـل والأغانى والخطابات . ولم تسلم هذه المواقعة من اضافة لمسـات من خيالى ، فألفت لأحد أصدقائى العديد من أقاصيص مقابلتنـا وأحاديثنا ، وأضفت اليها الـكثير من الأمور التى ليست فيهـا .

وتخيلتها ابنة رجل عصرى يستقبلنى ويعانقنى ويجالسنى ، وهى حلوة جميلة تأتى وتجلس بجوارى وتحنو على ، وتداعب شعرى ، وتميل على أذنى وتغرقنى فى بحر من جمال اللفظ وهى تحكى لى حبها وشوقها وهيامها ، وأحكى أنا لصديقى كل هـذا وأزيد فى الوصف كيف قابلتها وكيف عانقتها ، وكم هى رشـيقة ومتعلمة تجيـد الفرنسـية والانجليزية ولغة أخرى لا اعرف أسـمها ، وصديقى يلهث وراء قصتى ، ويسأل المزيد وأنا أقص عليه أكثر مما يسأل . بينما هذه الفتاة التى البسها كل هذه الزخارف لا تزيد عن كونها ابنة طباخ (الخواجة) لا تعرف سوى كلمات ريفية ساذجة تجلس على الأرض أمام باب منزلهم المتهدم طوال النهـار لا عمل لها سوى رؤية الرائح والغادى من أهل حارتنا والنقنقة مع جاراتها وهش الأوز ،ولم تحادثنى فى الحب والهوى ، ولم تداعب رأسى بل ولم تلمس شعرة منى .

الأكثر من ذلك أن هذه الفتاة التى أحببتها ، كانت تجـالس شبانا من أسرتها أو من خارج أسرتها تضاحكهم ، وأنا اتصـورها ملاكا رحيما وأغرق فى تصورى وأخلع عليها كل ما فى خيـالى من صور الجمال ، والرحمة والحب والعظمة ، وهى مجرد فتـاة بائسـة ابنة طبـاخ فقير دائم التبـاهى بشرف أمه التى رفضت الانصات الى اغراء سيدها ، بينما زوجته وبناته يفعلن ما شاء لهم من مجالسة شبان القرية الى أمور أخرى لا أعرفها .

هذه الفتاة التى هى أول من أحببت والتى وصفتها لصديقى بكل ما سبق لم تكن تعرف عن حبى شيئا ولم تتصوره ولم تتخيله مطلقا ولم تعرف به الا قبل زفافهـا بأيام قليلة . وكنت ، نتيجة حبها المتيم من طرف واحد ، فريسة سـهلة لدجال فى قريتنـا يدعى معرفة الغيب والقدرة على تسخير الجان والبراعة فى كتابة الأحجبة للحب والعشق والبغض . والناس فى قريتنـا يهرعون

اليه اذا حل باحدهم كارثة أو فقد شيئا عزيزا عليه ، كما يسرع اليه شباب القرية يسألونه المشورة فى العشق واضعين فى يده كل ما يملكون من نقود أو أقداح من القمح أو اكياس من القطن لكى يكتب لهم شيئا يجعل الحبيبة تركع تحت الأقدام ناسية أهلهـا وكرامتها .

حدث مرة أن تناسيت خيالاتى وبحت بقصتى لصـديق كان يذهب معى الى المدرسة ويشاركنى فى جولتى عبر الحقول فى آخر النهار لنستذكر دروسنا ، وكان يصغرنى فى السن ، ولما قصصت عليه الأمر ، نصحنى بالذهاب الى سيدنا الشيخ ، ووعد أن يقوم بدور الوسيط لأنه يسكن بجواره ويعرفه معرفة شخصية ، وأكد لى ونحن نتأهب للعودة الى منازلنا أن هذا الشيخ له قدرة على أن يجعلها تأتى الى فى منتصف الليل ، بل انه يجعلها ــ اذا أردنا ــ أن تجافى النوم فى ليلها من الحب وقسوة الشوق . وهو أيضـا قادر على أن يفعل أكثر من ذلك .

وداعبت كل هذه التأكيدات ــ التى يقدمها صديقى كمال ــ خيالى ولمست وترا حساسا فى قلبى ولـكن فى تردد ، وعنـدما أدرك هو ذلك .. أخذ يقص على العديد من القصص التى تحـكى قدرة الشيخ على أن يجعـل المحبوبة تذهب الى معشـوقها فى ثياب النوم متأثرة بفعل الجن .

وبدا الأمر لى بأنه قريب الى المعقول ، وطافت بذاكرتى قصة الجنية التى كانت لعم مغاورى ، ورأيت نفسى جالسا فى حجرتى التى تطل على الشارع وأمامى بعض الكتب الدراسية واذا بالباب يفتح وتدخل (كوثر) فى ملابس النوم ثم تركع عند قدمى طالبة الرحمة والعفو ضارعة أن أبادلهـا الحب ، ولـكنى أترفع عنهـا وأصدها فما يزيدها ذلك الا تمسكا بى حتى أتنازل فى النهاية واقبلها ، ولكزنى كمال بيده فى جنبى متسـائلا :

— موافق .

— موافق .

وصحوت من أحلامى ، ونظرت الى صديقى مؤكدا موافقتى ثم انصرفت .

وكان علينا أن ننتظر حتى يأذن لنا الشيخ بمقابلته ، وأنا فى سعادة غامرة مترقب متلهف ، أمنى النفس بالقرب من حبيبتى . وأخيرا بعد عدة أيام قضيتها فى قلق وافق الشيخ على حضورى الى منزله حيث كان يدير عمله .

كان موعدى بعد صلاة العشاء ، دلفت الى الحارة المظلمة خائفا متهيبا يجذبنى صديقى من يد وأتحسس بالأخرى جنيها فى جيبى أحضرته لأعطيه لسيدنا الشيخ حسب تعليمات صديقى كمال ، حتى وصلنا الى الدار .

صوت الباب يدوى فى الظلام الصامت ، ليفتح على نور ضئيل لم أتبين منه وجوه الجالسين على (فرن القاعة) الذين بدوا ككومة واحدة ، ووهج حجرات متقدة تصعد من موقد فخارى وأبخرة صاعدة ، وجذبنى صديقى فأجلسنى على حافة (الفرن) وتلفت حولى لأرى الجالسين فوجدت أنهم مجموعة من الرجال والنساء لم أعرفهم ولم يسبق لى رؤيتهم من قبل ، ورحت أتفرس على ضوء اللبمة ضئيلة النور ، فى وجوههم حتى استدل على وجه الشيخ ، كانوا صامتين لا يتحركون وكأنهم مجموعة من التماثيل الشمعية . فهمست الى زميلى :

— أخبر سيدنا الشيخ بحضورنا ..

ولكنه أشار على بالصمت ، ثم همس فى أذنى يخبرنى بأن سيدنا الشيخ فى الحجرة الأخرى فى جلسة مع الأرواح ولا يجب احداث أى صوت والا حدث له ضرر جسيم .

أخافتنى لهجته الحادة الواضحة وما لاحظته على الآخرين فلذت بالصمت ، وأخذت أتسلى بالنظر حولى ، وكانت عيناى قد اعتادتا هذا الضوء القليل ، فراحت ملامح الحجرة تتضح شيئا فشيئا ، وتبين لى أن ما يقرب من ثلاثين رجل وسيدة يجلسون القرفصاء فوق (الفرن) حول الموقد الفخارى ، وهناك آخرون ، ما يقرب من ثلاثة جلسوا على أرض الحجرة وفى يد كل منهم عصا غليظة ، وبجوارهم مجموعة هائلة من الأحذية ، جرداء اللون كالحة تميل الى لون التراب بعضها برقبة طويلة تبدو كأشباح ضئيلة الحجم ، وبعضها بدون رقبة بل هى أقرب الى النعل منها الى حذاء كامل ، وأغلب الظن انها أحذية هؤلاء المتربعين فوق الفرن. ثم يقف وسط الأحذية ابريق نحاس طويل ورفيع وقلة من الفخار ، وفى الركن (طشت) من النحاس ولا شىء غير ذلك فى الحجرة سوى السواد يكلل جدرانها ويغطى نصف الزجاجة فوق لمبة الغاز .

وأحسست أننى أعيش فى أسطورة ، او ربما انتقلت الى زمن بعيد وشعرت بالنشوة لوجودى فى هذا الجو الأسطورى ولكن ما لبث أن انتابنى حزن عميق وبعض خوف وصداع يثقل على رأسى ، وشعرت أن الأبخرة التى تتصاعد من الجمر تكتم أنفاسى ، وان الظلام له سمك وحجم وسوف ينقض على ويخنقنى، وراحت عيناى تبحثان عن طريق للخلاص . ولكن انشق الظلام عن رجل قصير يرتدى جلبابا أسود ويضع على رأسه عمامة خضراء وله لحية طويلة سوداء ، ويتمتم ببعض الكلمات غير مفهومة . وما أن رآه الجالسون حتى هبوا واقفين وعيونهم تسأل وهو يواصل خطواته غير عابىء بوقوفهم ولا بنظراتهم حتى وصل الى الفرن وارتقى الدرج فى بطىء ثم جلس وسط المجموعة التى أفسحت له مكانا بينهم وراح يقرب يديه من الجمرات ثم يفركها

ويمســح وجهه ، وكرر ذلك عدة مرات وهو يتمتم ثم رفع نظره ويديه الى سقف الحجرة واخذ يتلو شيئا رافعا صوته مرة خافضا اياه مرة أخرى وبعــد أن ختم تلاوته أمر النـــاس بالجلوس ، وأحسست برهبة من هذا الرجل الأسمر النحيل ونظرات عينيه التى تبرق فى الظلام وتتحرك بسرعة فى كل اتجـــاه وشـــعرت بالخوف يتسلل الى قلبى ، ولكن شيئا ما فى داخلى جعلنى أهدأ قليلا وأنظر اليه على أنه رجل طيب ولم يطل الصمت حتى همس الشيخ ببعض الكلمات ، لم أسمعها جيدا ، للرجل الذى كان يجلس بجواره ، وسرعان ما سلم على الشيخ وقبل يده وهب واقفا فى الحــال ثم قفز من فوق الفرن وكذلك فعــل الآخرون ، ولم تمر لحظات حتى غادروا الحجرة ولم يبق فيهــا ســـوى زميلى وأنا وسيدنا الشيخ .

- ٦ -

وفجأة حضرت سالمة .

عندما تتلاشى الظلال في الصحراء ، وتقف الشمس في منتصف السماء مرسلة أشعتها الساخنة في خطوط مستقيمة ، ويقف الهواء يستمتع بحمام الشمس ساكنا ، يصبح الجو داخل الخيام في معسكرنا لا يطاق ، وتصبح هذه الساعات كأنها من ساعات جهنم ، والويل لنا في الصحراء من تعامد الشمس وسط النهار .

كانت الأمور في معسكرنا قد بدت مكررة وأصبحت مملة ، فالنجاح الذى حققناه في الأسبوع الماضي أصبح مجرد خبر قديم، نشرته احدى الصحف ذات يوم في زاوية ضيقة تحت باب الأخبار المحلية ، كما أن ادارة الشركة كفت عن الصياح فجأة . وبالطبع وقفنا نحن لا نملك الا البقاء في انتظار عربة البريد حاملة الينا أوامر جديدة هل نرحل الى منطقة اخرى أم نعود الى المركز الرئيسى أو نظل هنا حتى تحضر قافلة المعسكر الآخر ؟ من هذه البلبلة اصبحت الأمور مجردة من اللون والطعم ، استاذيةطلعت غدت ممسوخة ، النوادر والحكايات والأحاديث تآكلت حروفها من كثرة ترديدها ، وأفكارنا وقفت عاطلة في انتظار امر التحرك حتى الذكريات التى كانت الزاد الروحى لنا في هذه المنطقة الموحشة تبلدت في عقولنا .

وكان حضور سالمة ، بعد المدة التى انقطعت فيها عن المعسكر . خبرا مثيرا هاما أيقظ الحديث على الألسنة التى جفت من كثرة الصمت . وتقدمت سالمة الى وسط المعسكر وهى تنادى على عبد الصمد الطباخ . وكنت أنا مسترخيا فى كسل تحت خيمة المطعم أحاول تذكر قصة حبى مع أول فتاة تعلقت بها ، ولمحتها وتوقف الشريط الدائر فى عقلى لأندفع نحوها دون روية ولا تفكير .

ـ سالمة ، أين كنت طوال هذه الفترة ؟

نظرت الى بدلال ثم جذبت الطرحة السوداء التى تنسدل على كتفيها وأدارت فمها المبتسم ولم تجب ، وسرى خدر لذيذ فى جسدى وأحسست بنشوة طاغية تغمرنى وكررت سؤالى مرة أخرى فى حرارة ، ولكنها استدارت تنادى على عبد الصمد ، الذى برزت رأسه من خيمته وصاح :

ـ والله زمان يا سالمة .

وكأن عبد الصمد يلمح بكلمته هذه الى شىء ما ، ربما يرمز الى وجودى بجوارها ولاحظ دلالها وفسره على نحو ما ؟ ، فتراجعت ثم استدرت قافلا الى مكانى الأول والغيظ يكاد يفتك بى ،والغضب من عبد الصمد يعصف بى ـ فهو لن يسكت وسيظل يروى هذا المشهد عشرات المرات وفى كل مرة يزيدعليها شيئا ، ولا أكاد أتخيل ما سوف تصبح عليه الأمور بعد ذلك ، فالويل لى من ألسنة الآخرين ، فهى تبحث عن شىء تقوله فما أن تتلقف . . رواية عبد الصمد حتى تلوكها فى تلذذ ، وكل لسان يضيف اليها جديدا من عنده .

ورحت أرقب سالمة وهى تتحدث مع عبد الصمد ، تشير له وتضحك ثم تنظر ناحيتى ، ولا أتبين من حديثهما شيئا ، حتى

ذهبت سالمة دون أن تمر ناحيتى ، أما عبد الصمد فواصل سيره حتى لحق بى وارتمى على الرمال تحت الخيمة وتنهد ، وبعد قليل رفع صوته ليغنى أغانى الصعايدة عن العشق والغرام .. ورغم أن صوته خشن وليس فيه أى لمحة تطريب أو جمال ، الا أنه تسلل الى قلبى ، وراحت ذكريات الحب تسترسل فى ذهنى مرة أخرى ، وعبد الصمد يحكى فى موال عن عذابه بحب المعشوقة وحيرته معها حتى أن الحجاب الذى كتبه لها لم يأت بنتيجة .. ويفسر ذلك بأن أحد حساده قد كتب له حجابا بالكره وربطه فى ذيل سمكة ، ومادامت السمكة تسبح فى الماء فكل حركة من ذيلها تقلب لواعج الحب فى قلبه واضغاث الكره فى قلب المحبوبة ، ولا يمكن فك السحر الا باصطياد هذه السمكة وذبحها وحرق هذا الحجاب ، واستدعى عبد الصمد جميع الصيادين وأعطاهم كل ما يملك ليصطادوا له هذه السمكة ، ولكنهم فشلوا جميعا فى العثور عليها ونضب البحر من السمك الا هذه السمكة التى ظلت تسبح فى الماء .

وغمرنى موال عبد الصمد بفيض من الذكريات ، ورجعت بى الذاكرة الى حكايتى مع الشيخ الذى ذهبت اليه أنا وزميلى كمال ، وتذكرت البقية ، فبعد أن ذهب الجميع من دار الشيخ ولم يبق الا نحن الاثنين ، تبسم الشيخ فى وجهى محاولا ازالة الرهبة فى المقابلة الأولى ، ولكنى دفعت بالورقة المالية ذات المائة قرش فى يده وقلت له فى ارتباك :

ــ أريد أن تصنع لى حجابا .

وأعتقد أن كمال كان قد أفهمه الموضوع من قبل ، فلم يسألنى عن شىء وناولنى ورقة بيضاء ومقصا وطلب منى أن أرسم بالمقص عروسة .

ولما كنت ماهرا فى الرسم ، فاننى أسرعت برسم صورة جميلة من ذاكرتى بالقلم أولا واجهدت نفسى فى توضيح التفصيلات الا انه لم يعجب سيدنا الشيخ ، وهذا ما ضايقنى كثيرا ، وأخذ المقص والورق وقص عروسة تشبه (خيال المآته) وثقب لها عينا فى راسها - ثم كتب اسم الفتاة واسم أمها على العروسة المقصوصة ، وملأها بعد ذلك بعدة حروف وكلمات غير مفهومة ثم مررها على موقد البخور ، وطلب منا الانصراف على أن نعود فى نفس الموعد بعد ثلاثة أيام لنستلم المطلوب .

وبقدر ما سعدت وأنا ذاهب للقاء الشيخ ، بقدر ما حزنت عند خروجى ، وظللت صامتا ونحن نسير عبر الحوارى المظلمة حتى خرجنا الى الشارع الرئيسى ، فأخرجتنا ضجة الشارع من صمتنا ، وسألت كمال ، صاحب الفكرة :

- وماذا بعد ذلك ؟

واندفع هو ، احساسا منه بأننى أتهمه ، يشرح لى الخطوات التى يجب أن اتبعها من جهتى ثم الخطوات التى سيقوم بها الشيخ من ناحيته ، وكنا ، حينما انتهى من حديثه ، قد وصلنا أمام بيت الفتاة وكانت جالسة فى الظلام على باب دارهم كما اعتادت وارتبكت أشد الارتباك ، ومرت اللحظات القليلة التى استغرقت عبورنا أمام منزلها وكأنها دهر كامل ، وكمال يلكزنى فى جنبى ولكنى تجاهلته وهو يهمس لى بأننى يجب أن أحييها على الأقل ، فهى الآن فى مجال فعل السحر من الساعة التى كنا فيها عند الشيخ ، وربما تكون هى الآن فى أشد حالات الشوق الى الحديث معى ولكن الخجل يمنعها ، ورغم الحاح صديقى بأن أكلمها الا اننى لم أجد فى نفسى الشجاعة الكاملة ، وواصلنا سيرنا حتى منزلنا .

وفى هذه الليلة ، ظللت أفكر فى (كوثر) واتخيلها أحيانا تدق باب حجرتى أو تدق على النافذة ، أو أنها قد دخلت الحجرة فعلا وجلست معى حتى الصباح .

ومرت الأيام وذهبنا الى الشيخ الذى أعطانا الحجاب المطلوب وطلب منى أن أضعه فى عنقى أو على الأقل احتفظ به فى جيبى ، ولا يجب أن يفارقنى أبدا .

واحتفظت بالحجاب كما قال الشيخ ..

وظلت حبيبتى جالسة على باب منزلها ترقب الرائح والغادى ، وظللت أنا أقنع نفسى بأى سبب أو تعلل بأى علة لكى أمر على منزلها ، حتى أصبح الشارع بالنسبة لى ممرا دائم العبور فيه من ساعة عودتى من المدرسة حتى تقفل الحبيبة أبواب دارها وتدخل لتنام ، وأحيانا كنت أتشجع واتعقبها اذا ذهبت الى النهر لتملأ جرتها ، أو اذا خرجت الى السوق ، ولكن لم تتقدم بى الحال أكثر من ذلك ، ولم تفاتحنى هى بحبها أو حتى مجرد أن تظهر هذا الحب بكلمة أو اشارة أو ما ينبىء عن وجود هذا الحب .

وضقت ذرعا بهذا الحب المشلول ، وصببت غضبى على صديقى كمال الذى أشار على بالذهاب الى الشيخ الذى لم تفعل جنه ولا أحجبته شيئا رغم أنه أخذ أكثر من ثلاثة جنيهات حتى الآن .

وفى نفس اليوم ، الذى تشاجرت فيه مع كمال ، ذهبنا الى دار الشيخ الذى لاحظ الغضب المرسوم على وجوهنا . وكنا خلال زيارتنا المتعددة الى منزله قد اعتدنا عليه وعلى ظلام الغرفة والهمسات التى تدور فى الغرف الأخرى والأشباح التى تظهر وتختفى حتى أننا فى احدى المرات عندما ذهبنا الى منزله لم نجد

أحدا فى أول الأمر وجلسنا فى انتظاره ، واذا بنا نلمح فى الظلام شبحا يشبه الى حد كبير امرأة عارية تماما يفر من حجرة الى أخرى ، ثم بعد برهة خرج علينا الشيخ وهو يتصبب عرقا ويحاول اصلاح ملابسه ويتمتم بتعاويذه كالمعتاد وانشغلنا قليلا بالحديث مع الشيخ حتى خرجت امرأة فى ملابس سوداء تخرج من نفس الغرفة التى خرج منها الشيخ ، وتقدمت الى الشيخ وقبلت يده دون أن تنظر اليه ، وكان يبدو عليها الارتباك ، ثم خرجت مسرعة تخفى وجهها بشال أسود .

الحقيقة أن هذه الصورة جعلتنا لا نهاب الذهاب الى منزل الشيخ ولا نخاف الظلام ، بل اننى كنت أشعر بلذة تدفعنى الى الذهاب الى هناك ، واقنع نفسى بأننى أخوض تجربة جديدة جيدة ، واننى بزياراتى هذه يمكننى معرفة أسرار المهنة .

وحينما رآنا الشيخ على صورة شديدة من الغضب ، تبسم فى بشاشة وطلب منا أن نجلس ريثما ينتهى من الحالة التى معه لأنهم من بلاد بعيدة وتأخروا كثيرا ، ثم غاب فى الحجرة الأخرى ونحن نمسح بعيوننا المكان منتبهين الى كل حركة ، وفى نفس كل منا رغبة قوية فى رؤية شبح مرة أخرى ، وكلما صدرت أى حركة من الغرف الأخرى نتخيل صورة الأشباح التى ستخرج . وبعد فترة خرج الشيخ بهدوء وهو يتمتم كالمعتاد ثم طلب منا أن نذهب وأعطانى ورقة مطوية على أن أحرقها وانتظر حتى تصير ترابا فأمر عليها سبع مرات ثم أجمع ترابها مرة أخرى وأضعه فى (سرة) أقذف بها فى قاع النهر وأكد لى مفعول هذا (العمل) لأنه مزود بأشياء لا نعلمها نحن البشر .

حقا ، ما كان أسهل من أن يخدع عاشق صغير مثلى ، فيظل يدور فى متاهات لا أول لها ولا آخر ، ويجرى خلف سراب

يرسمه شيخ دجال ، ولكن هل حقيقة أنه يوجد جن وجنيـات في خدمة بعض الناس ؟.

وصحوت من خيالاتي ، على هذا السؤال ، وكان عبدالصمد مازال يشكو حبه المفقود والسمكة التي في قاع البحر وامواله التي ضاعت في البحث عنها ، فأعدت عليه السؤال ، فما أن سمعني حتى كف عن الغناء وانتفض خائفا وهو يستعيذ بالله متلفتا حوله في خوف . ولم تنفع كلماتي في أعادة الهدوء الى نفسي ، فقد ظل عبد الصمد ينتفض ما يقرب من نصف ساعة ولم أحصل منه على جواب .

ومر اليوم ، حتى العشاء وجلسنا جميعا حول الطعام ، وكل يمضغ أحزانه مع أكله ، رفع بهجت صوته (بنكتة) فلم يضحك أحد .. خيل الى أننا سمعناها كثيرا حتى فقدت معناها وحينما لاحظ فشله في اضحاكنا ضمت برهة ثم قال موجها الحديث الى :

ـ أنا ملاحظ أنك معجب بالـ ....؟

وصاح أحدهم متصنعا المرح :

ـ أنا أول من يحضر الفرح .

وانقلب صمتهم الى ضـجيج ، وتنـاسى كل منهم ما يحزنه وحاول أن يغرق نفسه في شيء مثير ، وتصايحوا جميعـا بين مستنكر ومؤيد ، أو بين شارح لعواطف أهل البـدو وعاداتهم وآخر يرسم خطة الزواج ، ولا أحـد يسمع للأخر ٠ كـل يتكلم ولا ينتظر من ينصت اليه ماعدا طلعت فقد كان يأكل في صـمت وينظر الى ، وأنا لا أدرى ماذا أفعل ، هل أقف على أحد المقـاعد وأشرح موقفي وأنفي عن نفسي واقعة الحب ؟ أم أسكت وأدعهم يتصورونني حبيبا مغوارا استطاع أن يخطف فاتنة البادية وفتاة الصحراء ويهرب بها ؟

- ٧ -

جاء أمر التحرك الى المنطقة الجديدة ، وبدأ الاســـتعداد للرحيل ، وأصبح للمعسكر أمران يتحدث فيهما ، أولهما المنطقة الجديدة وما تتصف به من طبيعة قاسية وصعوبة فى الوصول اليها ، وثانيهما : سالمة وعلاقتى بها وما تبع ذلك من أقاصيص المقابلات الغرامية التى راح أعضاء المعسكر يتناقلونها فيما بينهم سواء فى السر أو العلانيــة . راعنى ذلك ، فقد جعلونى بطـــلا لقصة حب عنيفة مع فتاة البادية .

وحرت فى أمرى ، وخاصـــــة بعد أن وجدت طلعت ، هو الآخر رغم انه لم يشترك فى الحديث يتحاشى لقائى وكلماتطلعت اليه أسأله المعونة نظر الى السماء وعلى فمه بداية ابتســــــامة ولا يتكلم ، وخيل الى اننى أسقط فى بئر عميق ولا يمـــكننى الخروج منه ، وتسد جدرانه العالية الطـــريق أمامى وتحجب الرؤية عنى ، ولا مناص لى الا أن أظل أعوى داخل البئر كذئب جائع ، حتى يتمكن أحدهم من انتشالى .

كيف أتصرف ؟ أقسم لهم حتى يصدقوا بأنه لا توجد علاقة حب بينى وبين سالمة ؟ ولكن هل لديهم الرغبة فى التصديق بعد أن وجدوا شيئا مثيرا يتحدثون فيه ؟ ومن المحال أن أنزع منهم ما يطيب لهم مضغه في أفواههم ، وأسعدهم التحدث عنه وعن تفاصيله . وهفت نفسى الى التصديق ، وتمنيت أشياء ، ودار

إلى عقلى سؤال هل حقيقة لا توجد علاقة ما بينى وبين سالمة ؟ ألم أعش معها فى أحلامى . واحتضـــنها بين ذراعى ؟.. أليس الحلم رغبة فى أعماقى تود أن تتحقق فى الواقع !

وهى ، سالمة ، لماذا تأتى الى المعسكر كثيرا بعد أن قابلتهـــا فى تلك الليلة التى كدت أضل طريقى ؟.. ولماذا تحاول أن تبحث عنى كلما جاءت الى المعسكر حتى أنها تكثر من الحضـــــور الى خيمتى متعللة بأى سبب ؟ ربما تحبنى . ولم لا !! هى الأخرى لها أحساس وعاطفة وقلب وأحلام مثل بقية الفتيات فى مثـــل سنها !

وغرقت فى البئر أكثر وبدلا من التفكير إفى الخروج منـــه ومواجهة عاصفة الأكاذيب التى يشنها بهجت . جلست أفكر فى الحب ، هل حقيقة أحبها أم مجرد أكذوبة ؟ ، وهل ما حدث بينى وبينها أحلام أم حقيقة ؟

وشاعت قصة الحب ، وكل يوم يضاف اليها المــــــزيد من التفاصيل وكل يوم يشعل فيها بهجت مزيدا من نار الغـــيرة فى إقلوب زملائى فى المعسكر تجعلهم ينظرون الى وكأننى احتفـــــظ بكنز هائل اشتركنا جميعا فى البحث عنه وحينما وجدناه انفردت به وحدى دونهم جميعا أحشو به جيوبى وفمى وحقـــائبى تاركا الرفاق دون شىء يحصلون عليه .

فهم جميعا يقضون أوقاتا طويلة فى الصحراء لا يرون فيهـــا نساء أو فتيات .. وسالمة تروح وتغدو إفى المعسكر .. مجـــرد طفلة شرسة ولا تحتسب من أنواع النساء أو الفتيات ، وحينمـــا شاعت قصة الحب حولها ، كانت بمثابة خلع القناع عن وجهها.. وكأن سالمة دخلت صالون تجميل وخرجت منه أجمل امرأة فى العالم . وأصبحت بعد قصة الحب التى أشـــــاعها بهجت وملأ بتفاصيلها عقول الشباب المحروم وسط الصحراء ، وكأنهـــــا

حورية من الجنة والأمل المنشود وواحة السعادة التى يبحثون عنها، وانقلبت معاملتهم لسالمة من مجرد فتاة بدوية تلتقط بقايا الطعام الى فتاة يحلم بقربها كل الرجال . وأصبح حضورها الى المعسكر مثار كثير من التعليقات وفرصة لأن يسرع كل منهم محـــاولا التحدث اليها ، ربما يظفر منها بشىء ، كلمة أو لعنة تقـــولها بلهجتها البدوية أو حتى تقذفه بحجر وهى تضحك . وأحسست اننى المتسبب المباشر فى كل ما يحدث لسالمة ، ومن الواجب أن أحاول حمايتها ، ولكن كيف ؟

وبقدر ما أزعجنى ما أحدثه بهجت فى نفوس أفراد المعسكر بقصة الملفقة ، بقـدر ما أراحت نفسى وأشاعت فيهـا الراحـة وبعثت فى قلبى النشوة .. فكم هو جميل أن تشعر أنك محبوب من شخص ما ، أو مجرد أنك موضع اعجاب ذلك الشخص ،حتى لو كان الأمر كله أحلاما وأكاذيب ، والنظرات التى أراها فى عيون أفراد المعسكر والتى تدل على الاعجاب المشوب بالحسد لأن سالمة اختارتنى أنا دون بقية أفراد المعسكر لكى تعجب بى وتضحى بتقاليد قبيلتها وتعرض نفسها للقتل فى سبيل حبى ، تزيدنى تلك النظرات الشعور بالغرور الرجولى .

ولأن الانسان يعيش وفق نتائج تجاربه، فاننى عشت تلك التجربة بلذة مزدوجة أو بنشوة ممزوجة ببعض الخوف ، وأذكر أيضا ، حينما كنت أذهب الى دار الشيخ ، وأنا مراهق أتوسل اليه أن يكتب حجابا يجعل حبيبتى تجرى خلفى .. كان ينتابنى شعور مزدوج بالرهبـة والخوف من المنزل وما يحتويه من عفـاريت وأشباح ، ومن التجربة نفسها ومن تعاملى مع أحد الأشـخاص الذين أشعر نحوهم فى قرارة نفسى بالـكراهية ولوثوقى بعـدم صدق حديثهم ، وشعور بالفرحة لأننى سأتمكن عن طريق هذا (العمل) الذى يقوم به الشيخ من الحصول على قلب حبيبتى

وتصبح حياتى نعيما مقيما ، وكلما تذكرت تلك الأوقات الرهيبة التى أذهب فيها بعد آذان العشاء الى حارة الشيخ المظلمة الساكنة الا من أصوات الصراصير الرتيبة ، نتحسس طريقنا أنا وصديقى كمال حتى نصل الى باب الدار ، ثم صوت الباب الخشبى وهو يئن بغلظة عند فتحه أو غلقه ، أنينا مجروحا يثير الحـزن فى القلوب ، ويحتوينا المنزل برائحته وبخوره وظلامه وأنفاس النسوة والرجال المحشورين داخـل حجراته الضـيقة ، والهمسـات والأصوات وانات النساء ونواحهن وشهقاتهن فى بعض الأحيان. ورؤية بعض الأشباح العارية التى تثير فينـا شـعورا بالرغبـة المقرونة بالخوف وتكرار تلك التجربة يوما بعد آخر يجعل الانسان لا ينسى مطلقـا تلك السـاعات وتظل ذكراها تطوف بخيـاله . وخصوصا كلما فكر فى الحب أو وقع فيه .

وتمنيت فى نفسى ، حينما ضاقت بى الأمور ، أن أعثر على (جنية) مثل جنية عم مغاورى ربما يمكنني عن طريق هـذه الجنية أن أضع حلا سعيدا للمشكلة ، ولكن كيف ؟ كيف يمكن للجنية ان وجدت ــ أن تقدم حلا ، وطريقة تنفيذه !!

وفى صباح اليوم التالى ، وقبل أن أفيق الى نفسى وأسترد ما أخذته الأحلام فى خلال ليلة من ليالى الوحـدة والنـوم على الرمال المملوءة بالحشرات .. سمعت صـوت احدى سـيارات الشركة تقف على مقربة من المعسكر ونفيرها يعلو معلنا وصـول من فيها . وأسرعت مع الباقين ، وكأنهـا كانت الأمـل أو عجلة الأمان . وبكل حرارة الشوق الى لقاء زميل جديد جاء من قلب المدينة وعاش فيها وبين أضوائهـا وحرارتهـا وما يزال يحمـل رائحتها ، استقبلناه .. وبكل الرغبـة المضطربة فى صـدورنا لخوض تجربة جديدة ، وبكل حماس الشباب المندفع .. راحوا هم يحدثوننـا ، ونحن ندور حولهم ونتلمسـهم ونسـأل ونفك

الأربطة بحثا عما جاءوا به . وبين ضجة اللقاء بيننا وبينهم ضاعت كثير من التفاصيل ، ولكن ، رغم الكثير من الأوامر التى أتوا بها . لم أتبين منها الا ذلك الأمر الغريب بنقلى الى أسيوط . احتويته فى حزن وأخذته معى الى فراشى وجلست طوال ليلتى تلك أفكر وأعيد الفكر فى الأمر وملابساته وظروفه ، والحزن القديم الذى يحتوينى كلما نقلت من عمل الى عمل يعصر قلبى ويشعرنى بالشقاء والتفاهة .

وحينما إقابلت طلعت فى الصباح سألنى قبل أن يبادلنى التحية :

ـ متى سنرحل ؟

وحزنت لرغبته فى سرعة رحيلى الى هذه الدرجة ، فلم أجب ونظرت اليه ، كان متهللا ضاحكا وقال :

ـ هل انت حزين لأنك ستفارق سالمة ؟

ـ حتى أنت أيضا !!

ـ لا تغضب .. هناك فى أسيوط سوف تجد الكثيرات .

ـ أسيوط !

وواصل طلعت حديثه بنفس الروح المرحة ، وأنا حائر حزين وأود أن أصفعه أو على الأقل أتركه وأمضى ، ولكنه قال فى اصرار :

ـ يقولون عنها أنها مدينة جميلة ، وسأحاول أن أجد مسكنا فى المدينة ، ولكنى لن أقضى معك فى أسيوط الا عاما واحدا وبعدها أسافر الى المجر لاستكمال دراستى .

وآثارت كلماته انتباهى ، وفهمت قصده ونظرت اليه أسأله المزيد من التفاصيل ولكنه راح يتحدث فى حماس عجيب عن

أبحاثه ، ومشاريع المستقبل ورسالة الدكتوراه ، يجذبني أحيانا لانصت جيدا ، ويتركني ويعبر عما يقوله بيديه وأنا لا أملك الا أن أستمع اليه وقد هزتني مشاعره والعديد من الأسئلة تطفو أمام عيني حتى غلبتني الأفكار السيئة والمشاعر الحزينة وطفت على حديث طلعت ومشروعات مستقبله . ثم مددت يدى الى طلعت وأنا أردد :

ــ انشاء الله ، موافق ، طبعا موافق .

وتركته والألم يعانقني من كل جانب ، ومرارة في حلقي ، ولا أدرى هل تلك المرارة بسبب فراقي سالمة وتيقني من أنني لن أراها بعد ذلك ؟ أم مردها لأمر آخر ، ربما يكون السبب شعورى بالاهانة لنقلي بهذه السرعة الى أسيوط ، ولماذا نقلوني الى أسيوط ؟ لابد أن يكون هناك سبب هام ؟ وسواء أكان هذا أو ذلك فان فراقي لزملائي ، للآلات ، ولمناطق الصحراء التي تعودت عليها ، أليما ومحزنا .

أمي ، انهم هناك فوق الصدر يا أمي يهرسون الضلوع بأقدامهم ويغرزون أصابعهم في العيون ، ويصيحون ويهللون ، انهم ذئاب جائعة بعيون حمراء شرسة ، وأنا يا أمي ملقى على الرمل البارد أنيني ضعيف خافت وقلبي معلق أمام عيني يقطر دما ، وأنت يا أمي بعيدة تسألين الليل عني ، ألم يقل لك أنني في حاجة اليك ؟

- ٨ -

الحياة تستمر وتفقد لحظات توترها بسرعة .

وبعد اسبوع كنت أعيش ضمن خمسة من الشبان فى شقة متوسطة فى احدى العمارات الحديثة التى يبدو أنها بنيت بسرعة نتيجة لضغط ازدحام المدينة بالجامعة وطلابها والعاملين بهـا ، فلم يهتموا بالهندسة الجمالية للعمارة ، الشقة تلاصق الأخرى بحوائط رفيعة ، الحجرات ضيقة حتى تشعر أنك تسكن فى احدى خلايا النحل ، الأمر الذى جعل ساكنى العمارة وخصوصا بعد دخول الشبان الخمسة بينهم — فى حيرة من أمرهم وحرج شديد . فلا يمكن أن يكون هناك سر تحفظه الجدران فاذا غضب عبد الباسط أفندى الموظف بالمساحة مع زوجته لأمر ما ولعنها ودارت بينهما معركة كلامية حامية ، سمع الجيران بالأمر وأخذوا يعلقون واذا تخاصم اثنان من أبناء الست لبيبة ، أو تعارك أحدهم مع الخادمة أو تطاولت هى على زوجها أو اتفقا على شكوى صاحب البيت فلا سر هناك والجيران أول من يعرف . والست لبيبة حينما تتحرك فى حجرتها أو تذهب الى المطبخ وضعنا أصابعنا فى آذاننا حتى لا نصاب بأذى من دوى خطواتها .

ونحن أيضا لنا مشاكلنا التى لاشك تصل الى الجيران ؛ محمد ، الموظف بالتربية والتعليم دائم الثرثرة والضحك كما انه دائما يخطف ما يقع تحت يده مما يؤدى الى عراك دائم معه ،

وحسين ، الموظف بمجلس المدينة يهوى الغناء ، ويصر دائما على رفع صوته فى المنزل وكذلك عبد الستار المعيد بالجامعة لا يخلو من شذوذ فى كل تصرفاته ويصر على ان يعدل مجرى الأمور ولا يعجبه شيء فى نفسه ولا فى المدينة ولا فى الدنيا كلها ، ولا يبقى من الخمسة الا طلعت وأنا ، اما طلعت فهو مشغول بأبحاثه ، وأنا أحلم .

وكانت للست لبيبة ابنة سمراء على جانب قليل من الجمال، نحيفة متوسطة الطول ، فوق العشرين بقليل ، وفاطمة ـ هذا هو اسمها ـ تبدو أحيانا كأحد التماثيل المشوهة الملقاة دون عناية على جانبى الطريق فى احدى قرى أسيوط . قابلتها على السلم عدة مرات صاعدة أو هابطة ، كسيفة البال ، فى عينيها نوع من الاستسلام الحزين .

والزملاء الأربعة ، الذين يسكنون معى ، أو بمعنى أصح أسكن معهم مشغولون دائما سواء فى المنزل أو خارجه ، فى عراك دائم حول البعثات ومواعيدها . أو حول فتاة اختلفت الآراء فيها ، أو حول توزيع العمل داخل الشقة ومن يطبخ ومن يحضر الطعام من السوق .

وأنا أحلم ، مجرد أحلام أعيش فيها وأندمج معها وأدفن نفسى دون حركة حتى لا يصدر عنى سوى خيالات لحركة عصبية لا ارادية .. أحلم مرة بالسلطان ، وأحلم بالعودة الى الصحراء مرة أخرى . أو أرجع الى القرية وأحكى جواديت الصغار وأركب الجنية مع عم مغاورى .

أقرأ الجرائد دون تفكير ، وأحلم بالجنيات وأذهب الى عملى فى ساعة متأخرة لأعود منه فى ساعة مبكرة ، ليس لى مكتب ولا عمل معين ، أجلس بجوار أحدهم بعض الوقت .. أحيانا يطول حين يأتى الحديث عن عملى السابق فى الصحراء أو يقصر حين



يشيرون على بضرورة التحدث مع المدير لتحديد نوع عملى فلست براغب فى العمل • ماذا أفعل بين دوسيهات باهتة ملتصقة وأرقام ورزم ورق وكتابات كثيرة ، وأرفف خشبية . واصرخ فى نفسى : لماذا نقلونى الى هنا ؟ من أجل عمل معين ! . الأحسن أن أدعهم يبحثون وأنا أبحث أيضا .

سالمة الحبيبة ، البعيدة .. الجميلة .. ذات الشعر الجميل الأسود والفم المستدير ونداء الحب على الشفاة ، وجبين صارم ينسينى حديث اللهو ويوقف الكلمات قبل أن تتكون فى فمى .

أو تذكرنى مثل ما أذكرها وتتخيل تفاصيل صورتى كما أفعل ؟ أم ان فراغى وخيالاتى هى التى تصنع الحب أو خيال الحب ، ربما تكون جالسة الآن تفكر أو ربما تجرى ضاحكة كما كانت تفعل .

وأمى وشالها الأسود وجلستها عند باب دارنا تدعوا الله أن يسكب فى فمى جوهرة ويجعل كلامى مثل الشهد ، ويبارك خطواتى ويسعدنى فى الدنيا والآخرة ، أمى وتقاطيعها السمراء الدقيقة وبسمتها الحزينة وجيران أمى الضاحكين حول قدور اللحم فى ليلة العيد وقطع العجين وذرات الدقيق تغطى ملابسهن وأطفالهن بين ضاحك وعابث ، وزعيق حمار عائد من الحقل وصياح أفراخهن ، وأمل فى الصدور يداعبهن بليلة عيد سعيد ، وأمى تروح وتجىء ، هذا موعد حضورى وأذهب اليها ، وحقيبتى تحمل أشياء اشتريتها بقروشى ، ونظرات بنات الجيران ، هاقد عاد من البندر وهو يحمل اشياء جميلة ، وربما يضحكن بصوت عال وهن ينظرن الى وربما يبتسمن .

ولأن المدينة تنساه فى زحمة جريها خلف أضواء النيون وعلب محلاة بأشرطة ذهبية ، فالعيد فى القرى يحمل رائحة الكعك

واللحم وفرحة الصغار بملابس جديدة ، وفرحة اللقاء بالأبناء التائهين فى برارى المدينة .

نعم يا أمى لقد اقترب العيد وسوف أذهب اليك مهما كانت الأمور أحمل فى يدى قطعة قماش وشال أحمر ، كنت أود أن أحمل اليك المزيد من الحياة ، ولكن الحياة تلهو عنى .

ــ مالك يا ريس ؟

وصحوت على نداء زميلى وهو يجذبنى لأجلس بينهم وأتناول الطعام ..

ــ سالة فى أسيوط ..

ــ مش معقول !

وانتبهت جيدا الى الحديث ، وانتظرت التفاصيل ، ولكن للأسف كان مجرد مداعبة وشراك نصب ليعرفوا فيما أفكر .

وفى غياب زملائى ، والمنزل خال الا من أصداء أصوات الجيران ونداءات الباعة فى الشوارع أحس بأننى حبيس وحزين والناس من حولى سعداء يضحكون ويسخرون منى . والخروج يعرضنى لمواجهة هذه السخرية . فكنت أقضى فترات طويلة بمفردى جعلتنى على دراية بأحوال الجيران وعاداتهم وأمزجتهم جميعا .

وفاطمة تدور فى حجرتها وكأنها فى عراك مع شىء ما ، والخادمة السمينة تداعب أخاها فى حجرته ، وأمها فى المطبخ تتحرك فى بطء وتنادى على الخادمة التى تسرع تاركة الفتى يلهث فى انتظارها لتعود ، وما ان تعود حتى تناديها فاطمة تسألها عن شىء ما وأردت فى أحد الأيام أن أنظر من خلال نافذة حجرتى وكانت تطل مباشرة على غرفة فاطمة من خلال (مسقط النور الضيق) فوجدتها نائمة على فراشها وكأنها تتلوى ، ومرت فى نفسى لذة غريبة وظللت مستسلما لوقفتى ونظراتى تتابعها رغم

احساسى بالخجل ، وفجأة رفعت فاطمة عينيها ، واصطدمت بنظراتى المتطفلة ، وظلت لحظة دون حراك ثم بسرعة أغلقت النافذة فى وجهى .

وتحركت فى عقلى الصور ، والفراغ القاتل يعصف بى ويجذبنى الى قرار سحيق من الخيالات ، عيون فاطمة ترقبنى من أسفل البئر ثم من أعلى وتدور حول رأسى ، وتسرع الدوران ويرتسم خط من العيون ، حزينة تنادى وتشدنى ، لأجرى خلف الرؤيا الباهتة وامتلأت أحلامى مرة أخرى بفاطمة .

ومرت الأيام ، وفاطمة ترقبنى من أسفل من نافذة حجرتها وأنظر اليها من نافذتى .

وفى أحد الأيام لم أذهب الى مقر عملى وأخذت اتسلى بصناعة نوع من الطعام ، وأنسانى ذلك عن النظر من النافذة ، ولكن بعد قليل سمعت طرقات خفيضة على باب الشقة ، ظننت فى أول الأمر أنه مجرد وهم ، ولكن الطرقات تكررت فى الحاح جعلنى أسرع الى فتح الباب فوجدت فاطمة التى أسرعت بالدخول وأغلقت الباب خلفها .

كنت أود ان أصرخ أو أبكى او اضحك او اضرب رأسى فى الحائط لأتأكد مما حدث ، ولكن فاطمة لم تعطنى الفرصة لذلك ، قالت بعض الكلمات فى ارتباك لم أتبين معناها ، وتلعثمت أنا الآخر وتلاحقت أنفاسى وحرت فيما أفعل ، وخطوت نحوها وأردت أن أشير عليها بالجلوس .

حمرة الخجل وحرارته ، وقطرات العرق الذى يبلل الأجساد ورعشة الجسد وهو يصيح تجعل الحقيقة لها أجنحة ترفرف على الوجوه فتهب الريح الباردة لترطب الوجه الملتهب ،ومرة أخرى أعود لفتح الباب ثم أرتمى على فراشى منهوكا مضعضع الحواس ليست بى رغبة الحلم ولكن بى حاجة الى النوم .

- ٩ -

وتكررت زيارات فاطمة لشقتنا ، فى الأيام التى أمكث فيهـا فى المنزل ولا أذهب الى عملى وفى كل مرة ، وبعـــد أن تذهب ، أرتمى على فراشى شارد الفكر واحساس بالألم يهزنى . وما أكثر الأيام التى تغيبت فيها عن العمل :

حينما يأتى الصباح وأندفع الى ارتداء ملابسى بسرعة وأستعد للخروج ، أتكاسل دفعة واحدة ثم اخلع ملابسى وأجلس فى محاولة لقراءة الجريدة وعقلى شـــارد وعينـــاى على البـــاب وأذنى تلقط الأصوات على درجات الســـلم ، وما أن أجلس وأتصـــفح الجريدة حتى أندفع مرة أخرى الى ملابسى أرتديها لأهرب من نفسى خارجاً ولـــكن الوقت يمر ـــ وفاطمـــة لاحظت تخلفى بينمـــا خرج كل الصحاب ، فتدفع الباب وتندفع الى احضـــانى لتجذب اللذة من صدرى فتطفو ويتحرك الدم فى عروقى وأشـــعر بالعطش . فاذا ارتويت ، جلست أعتب على نفسى وألومها على اندفاعها وأبكى فى نفسى على شىء ضاع ، وعلى ما فقدت حتى يغالبنى النوم .

وزملائى فى المسكن لا يعلمون ، أو هم يعلمون ولا يتكلمون ، وسواء أكان هذا أو ذاك ، فاننى أتحاشى نظراتهم وأتجنب اللقاء الصريح معهم ، الصراع فى قلبى وعقلى يهز كيـــانى ويبـــاعد بنى وبين لذة العيش ، وأظل طوال الليل نهبـــا للهواجس والافكار ..

افكر فى الموت والعذاب والنار والرغبة تجتاح جسدى ، وفاطمة تبكى فى وهن مستسلمة أكاد أخنقها من العناق .

وفى الأيام التى أهرب فيها من المنزل ، اسير هائما على وجهى فى حوارى أسيوط انقب عن شيء اتسلى به أو أهتم ، ويظل عقلى جاثما حول تفاصيل اللقاء السابق مع فاطمة ، وخيال يحوم فى حجرتها باحثا عنها أو عن شيء يخصها ، ويدفعنى التلهف الى رؤيتها الى الرغبة فى العودة ، ولكن عناد فى العقل يقودنى الى الذهاب بعيدا لأدور حول الحقول وأسمع نداءات الحب فى اغنيات الصبايا يرددنها فى عذوبة .

الحب الطائر الهائم حول المدن والجبال ، الشادى فوق القرى والدرارى ، العائم فوق السحاب وفى أعماق البحار ، الممزوج بالحياة الشفافة ، المزغرد فى قلوب العذارى الذى يجذبنى اليها ، وسالمة تبتسم وتجرى على الرمال وتنادينى وتشدنى معها الى أعلى .

ثم يأتى المساء فيسرى فى جسدى برودة الليل فى أسيوط مع نسمات تحمل الحزن وصوت طائر يعود ، ثم خوار بقرة متلهفة الى ابنها ، وبكاء طفل ، ويسحب الظلام بقية شعاع الشمس ليضعه فى رفق خلف الجبل الذى يمتد طويلا طويلا ويلتف حول المدينة فى قبضة عنيدة وينام ، فتجثو المدينة من الخوف وترتعد من البرد ، ومصابيح قليلة مذعورة مغروسة فى الطرقات ، وتتقلص الحياة وتضيق لأعود الى غرفتى ، الى احلامى الى نظرات فتاتى الشرسة ، الى عراك حول غسيل كوب او طهى طبق الفول مع زملائى ، ونظريات الفضاء ، وذرات الرمال ، وانكسار الضوء ورغبة قوية للسفر الى المجر ، مختلطة بلعنات أم اسماعيل تقذفها حول ابنها دون رحمة ، وازيز وابور الجاز ومواء قطة ونداء

بائع اللبن ، ولا يستمر هـذا الا ساعة ثم تموت الأصوات فى قبر الليل الصعيدى ، ولا يسمع الا مواء قطة أو طلقات رصاص آتية من بعيد ، وأنا حائر فى غرفتى تعبث بى الأفكار والأحلام ، وأعبث بها حتى أنام .

... وتمر الأيام .

وأمر بهـا متخبطا تائها لا أعرف هدفا ، حتى ولا أعرف نوع عملى ، وكأننى أهيم فى الفراغ ، تحولت الصور الى أشباح وتحولت الحوادث الى قصص خرافية ، وتبدو لى المعركة فى منزلنا حول البعثات الى الخارج ، أو مشاكل العمل ، أو الترقيات ، أو حتى مشاكل الحياة العادية وكأنها صور باهتة لا حدود لها تظهر من بعيد .

ولـكن فى يوم من الأيام ، وصـل أحد أصدقائى ممن كنت على صلة بهم أثناء عملى فى الصحراء . وهو شاب طويل حتى انه يمشى بانحناءة بسيطة وكأنه يعتذر عن طوله ، رفيع كنخلة ضامرة على جبـل النـوبة ، وديع هادىء طيب القلب يهوى الحشرات ، جمع الحشرات من كل الأنواع والسلالات ويراسـل كل المجـلات العلمية التى تصدر فى هذا المجال فى أنحاء العالم ، وبيته يشبه متحفا حيا لجميع أنواع هذه المخلوقات ، تعرفت به فى الصحراء حيث كان يعمـل ضمن بعثـات البحرية الأمريكيـة التى تطوف بالصحارى ، تجرى أبحاثها حول الحشرات .

وابراهيم ، وهو اسم صديقى ــ يجذبنى اليه بحكاياته الكثيرة عن رحلاته وأبحاثه وبقصصه التى يرويها من عالم هذه الـكائنات الدقيقة ، كان حينما يحـكى تلك القصص يبث فى نفسى رغبة ما تجعلنى أتذكر حواديت الصبا وأقاصيص شـيوخ قريتنـا ،

وتعلقت به ولا أدرى سبب ذلك هل يرجع الى حواديته وقصصه ام يرجع لسبب آخر ؟

وعرف عنى ابراهيم هذه الهواية فراح يقص على فى كل مرة يلاقينى فيها أخبار رحلته الجديدة وما حدث فيها ، وعندما يرى انبهارى بما يرويه ، يجذب حقيبته السوداء ويخرج منها مجموعة الصور التى تثبت صحة روايته ، وينتشى ابراهيم لرؤية الدهشة المرتسمة على وجهى وأنا أستمع اليه وهو يروى عن الثعبان والدودة والصرصار والقراد .

فرحت بصديقى ، وأقبلت عليه أحادثه ، وأتذكر أيامنا الماضية سعيدا به وبزيارته التى جذبتنى الى السطح وأبعدتنى عن الصراع الداخلى الدائر فى أعماقى ، ومضت ساعة والحديث فى بدايته ولكن لاحظت أنه مرهق فاقترحت عليه النوم وفى الصباح تكمل ما فاتنا ، وقبل أن ينام عرض على الذهاب معه فى رحلته القادمة .

وكأن سالمة تسكن فى الصحراء ، وان الصحراء تعنى سالمة أراها حينما أرى الصحارى ، وانبثق فى تصورى طيفا مؤنبا عاتبا فى رقة ، داعيا الى الود والصفاء والصفح عما مضى ، فاندفعت أقبله وأشكره على دعوته ، كان يجلس على مقربة منا زميلى طلعت الذى رفع رأسه من فوق كتبه وقال موجها الحديث الى ابراهيم :

ـ أظن يا أستاذ ابراهيم البعثة ستمر بالقرب من معسكر أبحاث المياه ؟

فرد عليه ابراهيم بسرعة :

ـ لا ، .. سنمر بجوار الأقصر .. أى خدمة ؟

ـ لا .. شكرا .

وانحنى طلعت مرة أخرى على كتبه وابتســامة خبيثة تظهر على فمه وهو يردد :

ــ على بلد المحبوب وديني ..

ولم يفهم ابراهيم ما يعنيه طلعت فجلس صامتا فى خجل ، وذهبت أنا لأصنع شايا ، ونار هائلة تصعد الى أنفى وأذنى واحساس بخيبة الأمل يجفف حلقى ، وابتسامة طلعت الساخرة تبرق أمام عينى فى وقاحة .

وعلى الرغم من هذا ، فرحت بالرحلة ، وبريق ضئيل من الأمل ، فمجرد رؤية الرمال وسماع صوت الريح وهو يحرك الكثبان ، سوف يجلب لى السعادة ، ربما أقابلها لو شاء الحظ الطيب فهم رحل وربما يرحلون الى المنطقة التى نقصدها .

لا تغضبى هكذا ، انتظرى فقط وستعلمين كل شىء فى حينه ، يا لك من عنيدة . لقد قضيت ليلى أفكر فيك ، ومشيت يومى أتخيل لقاك وسرت دربا طويلا فى الصحراء حتى أجدك . ثم تغضبين ماذا ، فاطمة ! من فاطمة هذه ؟ ابنة الجيران ليست لى علاقة بها ، انها مجرد اشاعات حملوها لك مجموعة من الواشين . حسنا . ما أجمل ابتسامتك ، وما أرق حديثك ، لو أنك لم تصفحى عنى لمت كمدا ، ولكن حمدا لله لقد تجمع الشمل من جديد .

وفى الصباح كان كل شىء على ما يرام ، سيارات البعثة على أهبة الاستعداد ، سيارة الدليل فى المقدمة ، وهو رجل من أهالى الواحات متقدم فى السن ، من خلفها سيارة قائد البعثة وهو امريكى طويل متجهم الوجه عابث النظرات ويركب معه مساعده وطبيب البعثة ، ثم فى السيارات الثلاث الباقية يركب

اعضاء البعثة مع أجهزتهم وآلاتهم وبنادقهم ، ويأتى بعد ذلك عربات التموين والمياه والاسعاف والخيام وأدوات المعسكر ، وجلست أنا بين ابراهيم وباحث آخر يدعى (سميث) فى سيارة خلف سيارة القائد .

وحينما أعطى القائد اشارة البدء ، واندفعت السيارات نحو الطريق الجبلى تاركة أسيوط خلفها . نظرت خلفى وابتسمت ثم اعتدلت فى جلستى ، محاولا اهمال ما مضى والاقبال على ما يأتى بروح وأمل وقلب جديد .

ولكن الحديث الذى دار بين ابراهيم و (سميث) دفعنى الى العودة الى ذكرياتى باحثا فيها لعلى واجدا فيها ما يؤنس وحدتى فحديثهما يجرى عن أمور لا أفهمها ولا استطيع متابعتها والطريق هضاب فى هضاب لا يوجد ما يثير الاهتمام بالرؤية ، صور مكررة تتتابع ، وأزيز العربات واهتزازها على الطريق الجبلى يصم الآذان ويجبر الانسان على الصمت . فلم أجد بدأ من السلوى بين أفكارى !

وطافت فى خاطرى حكاية عم مغاورى ، وسألت نفسى عن حياته ودلفت الى عقلى صور ضاحكة ومعارك قتال وفرسان ملثمة ثم هجوم على قافلة كانت تحمل عروسا الى دارها الجديدة ، وعويل نساء وصليل السيوف ، وقرقعة الدروع ، وجنيات تخرج من أعماق البحار تغنى وترقص ثم تختطف فارسا يجلس على شط قناة .

اى جنية يمكن أن تحقق لانسان أمانيه وما أكثرها ؟ ما الذى دفع سميث أن يأتى من سيدنى باستراليا ليجوب صحارى العالم باحثا عن حشرة تسمى (القراد) معرضا حياته لخطر الحوادث ، سائرا في طريق لا يعرف طبيعته ، مندفعا يتخطى أى عائق ..

ضاحكا .. لاهيا فى جولاته باذلا كل قطرة من جهده فى صبر واصرار . هل يمكن أن يجد (سميث) فى حشرة القراد جنيته المنشودة ؟ التى تحمله الى الأمانى وتحقق ما يصبو اليه ؟ ربما !! وكذلك الباقى ــ أعضاء البعثة ــ الذين جاءوا من بلادهم البعيدة تاركين الأهل والولد والأحباب والذكريات والأحلام ليسيروا خلف حشرات باحثين مدققين فى حياتها ..

ربما .. ولكن ما هى الحشرة التى ابحث أنا عنها ؟ ما هى الجنية التى أبحث عنها وأركب عليها لتقودنى الى عالمى ؟ لا شىء ، لا أبحث عن شىء ، فقط أتذكر أشـياء حدثت واحلم بأشـياء تحدث . كيف تحدث الأشياء فى المستقبل ؟ فقط فى الأحلام . وهل مثلى آخرون ؟ ربما .. هؤلاء الذين يجلسون فى المقاهى أو لاهون حول دور الملاهى أو الباحثون عن بائعات الحب أو شاربو الخمر أو غيرهم .. وربما .. أكون وحدى هذا التائه .. أحب خيالا بعيدا فى الصـحراء تركته خلفى ، تعانقنى متعـة جدية لا تدوم . وأحب أمى ولكنها بعيدة هى أيضا فى القرية .

وحجاب وراء حجاب .. ونقودى القليلة تسيل من يدى ، وكلما ضقت ذرعا بمصاريف الشيخ جذبنى كمال من يدى لنذهب مرة أخرى فى الظلام ، ونتسلل فى صمت ، وندلف الى المنزل فى سكون ونجلس القرفصاء فى خوف ، وكومة الأحذية الكالحة تصور لى عالما غريبا .

نعم .. انه عالم غريب ، كل يبحث عن جنية .. وكنت فى انتظار جنية تلهف قلب حبيبتى وتقدمه لى على طبق من الذهب يرتعش من الحب وينتفض فى لذة أو ألم ويسيل لعابى لأختطفه بسرعة وابتلعه ، واهتز اهتزازا عنيفا ــ انتبه جيدا .

ـ ماذا حدث ؟

ـ أنزل من السيارة ، سنتوقف هنا للراحة .

منطقة خالية جرداء تماما ، تقع بين هضبتين ، بعض الاحجار الداكنة اللون تجلس فى تكاسل ، على مقربة منها بعض الأحجار الجيرية الصغيرة .. الأرض متماسكة الى حد ما .. أصوات الدليل والطباخ مختلطة بأوامر قائد البعثة .

وسرعان ما انتشرت بعض الخيام الملونة أحاطت بها السيارات، وارتفعت رائحة الطعام مع ضحكات (سميث) الخشنة ، ووقف (ايمى) أقصد (ايمرسون) أمام عدة خرائط يحدد الطريق ومعه الدليل يتحدث معه بنفس لغته فى طلاقة ، وأحسست أن الحياة دبت فى المكان ، آلات تصوير وآلات للمسح الالكترونى ، غناء الطباخ .. ثم دعوته لنا للطعام .. ووجدت مائدة حقيقية ومقاعد وورود وماء وطعام ساخن وتجمعنا حول الموائد ، سميث يحاول جاهدا أن يفهمنى ما يقوله ثم يضحك وأنا ناظر اليه بغباء ، وابراهيم يترجم لى ما يقوله ولكن ايمرسون يشير عليه بالصمت .

وضحكت من قلبى وصحت :

ـ يا لها من حياة جميلة .

- ١٠ -

عشرة أيام مع البعثة ، أتنقل معهم من هضبة لجبل ، ومن واحة الى واد قديم مهجور هم يبحثون عن الحشرة ، وأنا أبحث عن حقيقة نفسى مندمجا معهم تارة ، بعيدا عنهم تارة أخرى ، أحيانا أهتم بما يهتمون به وأنفعل بما يحسون به وأحيانا أخرى أجلس كتمثال ترك فوق جبل مهجور .

وتعلمت الكثير ورأيت الكثير ، تعلمت الصبر ، فهم لا يبالون مهما كانت العقبات فى سبيل بحثهم الطويل الشاق حول حشره ضئيلة تعيش على ارجل الماعز او فوق أحجار الآبار القديمه المهجورة أو على ثمرات البلح المتساقطه ، متنقلة فى قطيع باحثة عن مكان لتجمعها .

وابتعدنا عن الواحات متجهين جنوبا الى واد يقع فى الطريق الى امتداد النوبه فى الجنوب ، وبدأت كميات المياه تقل ، ولكن السيارات تندفع على طريق وعر لا يصلح الا لسير الجمال ، وحينما نتوقف ونقيم الخيام لنعسكر ، ويمتد بنا السهر الى وقت متأخر من الليل انظر حولى واتذكر القاهرة وأسيوط وقريتى .. أشعر بالحنين للعوده .. والنار تذبل ، وتسكن الحركه ويصبح المكان موحشا قفرا يرتفع حول ظلال الخوف ورقصات الرعب وكان غولا ينقض على فانكمش فى خيمتى ، واظل متيقظا الى كل حركه حتى يغلبنى النوم .

وفى أحد الأيام ، وكنا نعسكر فى مكان أطلقنا عليه (قاع الرياح) فهو يشبه بحيرة وسط هضاب صخرية مرتفعة تحيط به من كل جانب فى شكل دائرة ، وتهب الرياح ليل نهار ، فوق الهضاب لتهوى الى البحيرة الجيرية وتلف وتدور وسطها حاملة ذرات الرمال وشظايا الأحجار الجيرية وبعض الحشرات المتطايرة . وكان جانب من هذه الحافة منخفض الى حد ما — وعلى مسافة منه بعض الأحجار تبدو كالأشجار الجرداء .. فأردت الاستغراق فى مجال البحث كما يفعلون .. فاصطحبت مبروك ، الدليل العجوز للبعثة وأخذت بعض الأدوات التى دائما يستعملها ابراهيم فى جولاته ، كما أخذ عم مبروك بندقيته ، وسرنا صوب الأحجار المرتفعة وأنا اغذ السير وكأننى ذاهب لاكتشاف قارة جديدة ومبروك سعيد بحماسى مندفعا بجانبى ، وطال بنا الطريق وكنت أخاله على مسافة قريبة من المعسكر ، حتى وصلنا وقد اشتد بى الارهاق وشعرت أن صدرى يضيق وأنفاسى تخرج منى بصعوبة ، ونظرت الى مبروك وصحت وأنا أرتمى على أول حجر يصلح للجلوس :

— شىء متعب ..

فضحك الرجل ، ونعت شباب هذه الأيام بالرفاهية ، وعدم القدرة على التحمل ، ثم جذبنى بقوة ليقودنى الى أعلى قمة الهضبة .

واحسست كأننى أعيش حقيقة فى عالم مسحور ، ورحت ألهث من السعادة وأنبش بيدى فى الأحجار ، وجدت أن الأحجار المرتفعة بالفعل تشبه الى حد ما شجرات تقف فى صمت وكبرياء ، ولم أصدق عينى حينما وجدت ما يشبه الاناء المستدير ولكنه غير متكامل ومحطم من جانبه .. ثم عدة عظام متحجرة ، والقيت

نظرة على المكان وخيل الى أن مدينة ما كانت هنا وأن حياة سعيدة كانت تدب فى هذه المنطقة . جحور عميقة ، بعض المستطيلات من الأحجار . ولم أكف عن الحديث كنت أتباهى باكتشافى لمبروك ولكنه كان يسخر منى ويقول ان هذه المناطق لا يسكنها الا الجان : وجمعت ما وجدته وما أقدر على حمله وبدأنا نهبط من جديد .

وبفرحة الباحث المجد حملت ما عدت به وذهبت الى ابراهيم وكان منهمكا فى عمله وما ان رآنى حتى صاح غاضبا :

ـ أرجوك ، لا تغادر منطقة المعسكر حتى لا تسبب لى مشاكل .

ولكنى تغاضيت عن غضبه وأخذت أريه ما جمعت وهو يقلب فيها بين يديه حتى فحصها جميعا ثم جمعها مرة أخرى ، فصحت به وكأننى أبين له مدى أهمية كشفى :

ـ أشجار وكائنات متحجرة ..

فابتسم فى هدوء وهو يقول :

ـ أنا أعلم ذلك ..

وحرت فيما أقوله وشعرت بشىء من الاهانة ورغبت فى أن أقول له شيئا يؤلمه ، ولكنى لم أفعل وآثرت الصمت حتى قال :

ـ هذه المنطقة كانت مملوءة بكل أنواع الحيوانات بل دلت الأبحاث على أن الغابات وشدة الأمطار كانت أهم مميزات هذه المنطقة ، فوجود الأشجار المتحجرة شىء طبيعى ..

وأحسست أن اكتشافى غير هام ، بل ولم أكتشف شيئا على الاطلاق وجلست فى حزن ، ونظر ابراهيم الى وقال ضاحكا :

ــ المهم أن نثبت أن الانسان الأول عاش هنا . فاذا اخذنا هذه العظام المتحجرة وأجرينا عليها الدراسات وعلمنا عمرها تماما أصبح فى مقدورنا اثبات ذلك .

ثم قال وهو يستدير :

ــ وبذلك يسجلون لك كشفا علميا هاما .

وتركت ابراهيم وخرجت لأجلس فى طرف المعسكر واحساسى بالخيبة يملأنى ، وسرى سؤال فى ذهنى ، هل الجنيات أم الانسان الأول صاحب الأسبقية فى هذه المنطقة ؟ حتى جاء عم مبروك وجلس بجوارى وقدم لى كوبا من الشاى ، ولم يكن فى البعثة من يفهم فى شرب الشاى العربى مثلنا ، وربما يكون ذلك المرجع فى زيادة ارتباطى بعم مبروك ، ولم يكن له عمل مثلى حينما يتوقف المعسكر . وجلس الرجل بجوارى نرتشف الشاى فى متعة ، أنظر حولى فلا أجد الا احجارا صامتة بعضها يشبه آلهة اليونان ، وبعضها يبدو وكأنه تمثال امرأة باكية ، ثم مساحات خاوية ، واندفع سؤال على لسانى لعم مبروك :

ــ هل رأيت جنية من قبل يا عم مبروك ؟

وصمت الرجل برهة وتمتم ببعض الكلمات ، ثم سألنى :

ــ مزيدا من الشاى ؟

ــ لو تكرمت ..

وملأ أكواب الشاى الساخن مرة أخرى ، وآثرت الصمت ورحت أتسلى بارتشاف الشاى ، ناظرا تارة الى فقاقيع الهواء على حافة الكوب ، وتارة الى ابريق الشاى وقد وقف برشاقة تشبه رشاقة الديك الرومى وعظمته ، وفجأة بدأ مبروك يقص :

ـ كنت فى شبابى أعمل مع تاجر للجمال والبقر السودانى ، أذهب معه الى السودان فنمكث أياما حتى نجهز قافلة ونتزود ثم نعود ، نأخذ المراكب حتى نصل أول درب الأربعين ونسير فيه حتى مدينة أسيوط ، وهناك نستريح بعض الأيام لنواصل السير مرة أخرى حتى امبابة بالقرب من القاهرة ، حيث نبيع الماشية لنعود مرة أخرى .

وكانت هذه الرحلات تستهوينى وتخلب لبى ، فلا تفوتنى قافلة منها سواء فى الذهاب أو العودة .

وفى احدى الرحلات ، مرض الشيخ صابر صاحب القافلة ، واضطررنا لتركه فى أحد النجوع ، وأخذت أنا مكانه وتزعمت القافلة أسير بها فى الطريق بعض النهار وبعض الليل ونستريح جزءا من النهار وجزءا من الليل .. كما اعتدنا من قبل ، وفى احدى الليالى ، وبينما نحن جلوس اذا بصفير رفيع صادر من مكان ما ، ثم تكرر عدة مرات ، فانتبهنا جيدا محـــاولين تبين مصدر الصوت ولكن بدون فائدة ، وتكرر الصفير مرة أخرى . فرقد أحدنا واضعا اذنه على الأرض ينصت عله يهتدى الى مصدره ولكنه فشل رغم تكرار الصفير الذى بدأ يعلو حتى تنبهت الجمال ووقفت فى ذعر ثم ركضت بأقصى سرعتها فى خوف محموم ، متفرقة بين الهضاب وارتفع الى السماء لسان من الدخان ، وجرى بعض الرجال فى محاولة للهرب أو الاختباء واختلط الصــفير بصياح الرجال برغاء الجمال ، وحرت كيف أتصرف والجمـــال قد تفرقت والرجال يهربون ، وانا خائف على نفسى وعلى القافلة التى فى أمانتى .

وسرت فى الظلام أتخبط مناديا بصوت مرتعش على الرجال

ولكن لا مجيب ، ولا أشم رائحة الجمال ولا أسمع لها صـوتا ، والوقت يمضى ، ماذا أفعل ؟

وفجاه رايت نورا أخضر ، وما لبث ان تحول هذا النور الى فتاه جميله ، جمـالا لا يوصف واقتربت منى ، وانا فى خوف شديد أود أن أجرى أو أصيح ولكنى غير قادر .. حتى وقفت بجوارى وقالت لى :

ــ لا تخف يا مبروك .. أنا بنت عمك ..

وحاولت أن أقول لها شيئا ولـكن فمى مغلق ، فليس لى ابنة عم ، وحتى لو كانت لى ابنة عم فكيف تأتى الى هنا ؟ وأسلمت أمرى الى الله .. واقتربت منى أكثر وجـذبتنى من يدى وسرت معها لا أتكلم ، ولـكن فى قلبى نوع من الراحة انظر اليها بجانب من عينى ، ورغبة ملحة فى نفسى أن ألمسها واتحسسها ، وكأنها علمت بما فى نفسى فقالت :

ــ سوف أسير معك حتى ادلك على مكان الجمال الشاردة واجمعها لك ، وفى الصباح ستجد كل رجالك وقافلتك .

وجلسنا على حافة حجر ، لا أدرى كم لبثنا هناك ، حتى لاحت تباشير الفجر فوقفت وهى تشير على قائلة :

ــ لا تخبر أحدا عنى وسأراك فى الرحلة القادمة .

ثم اختفت مرة واحدة .. وطلع النهار ، فوجدت القافلة قد عادت كما عاد الرجال لنستأنف سيرنا مرة أخرى .

وفى كل رحلة فى هذه المنطقة وبعد منتصف الليل تأتى ابنة عمى فاذهب معها حتى نهاية الهضبة وأمكث معها حتى قبيل مطلع

ألفجر ، أحيانا كانت تغنى وأحيانا تحدثنى عن أشياء غريبة .. فلا أشعر بالوقت حتى تهب واقفة وتختفى فجأة كما جاءت فجأة.

وسكت عم مبروك واخذ يقلب نظره فى السماء ، وطال انتظارى لسماع باقى القصة ، فصحت قائلا :

ــ وماذا بعد يا عم مبروك ، أين هى الآن ؟ .

وطفرت دمعة من عينيه مسحها بسرعة وهو يتظاهر بالسرور ولكنى لمحت الأسى والحزن يكسو وجهه ، فأخذت أسرى عنه ، وأحضرت له شرابا منعشا ، وأنا أثرثر بأى كلام ، حتى هدأت نفسه قليلا وصحبته حتى فراشه .

وذهبت الى خيمتى وأنا افكر فيما قاله عم مبروك ولماذا تاثر وحزن هذا الحزن الشديد ؟

- ١١ -

وآن لى أن أعود ، أعود الى عملى والى أحلامى ، الى أسيوط ، وتركت خلفى صديقى ابراهيم وعم مبروك يواصلان الرحلة بعد أن وصلنا الى أسوان، وآثرت أنا أن أذهب شمالا لأعود ،بينما واصلت البعثة المسير الى الجنوب مخترقين طرقا وعرة علهم يحصلون على ما يريدون .

وماذا يريدون ؟ .

ماذا يريد عم مبروك ، وهو فى هذه المرحلة من العمر ؟ ألم يكن من الواجب عليه أن يلزم داره فى هدوء وكفاه كثرة ترحاله وتجواله فى شبابه ؟ ولكن يبدو أنه يصر على السفر والتحمس له ، بل انه حزن حينما أمر قائد البعثة بالتوجه الى اسوان ولم يزايله الحزن الا بعد أن عرف أنهم لن يمكثوا بها الا ما يكفى من الوقت ليتزودوا لبقية الرحلة ، ولمحت بريق السعادة يومض فى عينيه ويهز الأخاديد السمراء فى جبينه وهو يبلغنى بلهجته الخاصة خبر سفرهم الى النوبة مخترقينها حتى السودان ، ثم صفق طربا وهو يقول :

ــ والله زمان !! أرض النوبة بتنادى عليك يا مبروك ..

ويخيل الى ، حينما استعدت هذه الصورة فى ذاكرتى وأنا

فى القطار عائدا الى أسيوط أن مبروك يبحث عن شيء فقده ، وانه ربما يجده مرة ثانية فى شعاب الجبل أو باطن الوادى .

وما الذى فقده عم مبروك الا هذه ابنة العم ، سـواء كانت حقيقية أم وهما أم مجرد حلم يظل يداعبه فى شبابه ، فلما ولى الشباب وفرصة تحقيق الحلم ، ظل يبحث عن شبابه فى ثنايا الحلم وروايته .. وليس اصراره على الذهاب مع البعثة وتحمله مشقة التنقل بين الطرق الوعرة الا بحثا عن جنية (درب الأربعين) ـ ولعله يكون أكثر منى شجاعة وأوفر عقلا لأنه ذهب يبحث عن حلمه وعن نفسسه من خلال بحثه عن الحلم ، ولم يجلس ليحلم مثلى فقط ولكنه ذهب ليرى خياله منعكسا على سطح الرمال الملتهبة .

والقطار يحملنى الى أسيوط مرة أخرى ، مندفعا الى الشمال وكأنه موظف فرح بنقله من أقاصى الصعيد الى العاصمة .

الدينا حر والتراب يندفـع من خلال فتحات مجهولة خـلال النافذة ، والرجل الجالس أمامى يغط فى النوم ويصدر صفيرا منتظما ، يهتز شاربه مع اهتزاز بطنه السـمين ، وأربعة آخرون جلسوا خلفى يتناقشون ، هذا يؤيد ضرورة تسجيل العقد معللا ذلك بأن الدينا لم يعد لها أمان . وآخـر يصر على ضرورة وضع خطة ، وبدلا من شراء فدان واحد . يمكن شراء الأربعة والنقاش ، رغم أنه متشعب الآراء وفى أمور مالية معقدة الا أن كل جانب يؤيد وجهة نظره بعدد من الأمثال الشـعبية أو الحكم المأثورة والبعض يزيد فيؤكدها بالوقائع التى حدثت بالفعل . وحينما تلتحم المناقشة وانت لا دخل لك بها ، وتجد نفسك مرغما على سماعها ، فانها تصبح نوعا من العذاب لا سبيل للهروب منه .

وعلى المقاعد التى أمامى يجلس ثلاثة ، أحدهم يبدو من خلال حديثه أنه مفتش زراعى ، والآخران يبدو عليهما بأنهما تاجران أو

ربما شيء آخر له علاقة بالتجارة ، والحديث بينهم يعلو أحيانا على
ـ حديث الآخرين ـ فأتبين أن المفتش يحكى قلة حظه وسوء طالعه
من الغبن الواقع عليــه ، والآخران يؤيدان أقواله ويعــددان قلة
حيلتهما فى التحايل على الرزق وتثور ثائرتى ساخطـا راغبا فى
خنقهم ولكنى لا أتحرك وأترك تعليقاتهم تدخل رأسى وتنفجر هناك .

وبجوارى شاب وزميله ، أعتقد أنهما مدرسان ، راحا بدون حرج
أو مجرد احترام لبقية الركاب يتحدثان عن مغامراتهما النسائية
فى بلاد الصعيد، وتعلو ضحكاتهما ويصفقان طربا كلما قص أحدهما
واقعة حدثت له .

الضجيج والأحاديث المختلطة والمتصاعده من بقية العربة والتراب
والحر ، وعويل طفل وغناء قبيح ، وأرض العربة قذرة مبتلة ، ومنظر
الأجولة والمقاطف والسلال المنتفخة ، ونداء بائع الشاى ، كل هذا
جعل رحلتى الى أسيوط شيئا مؤلما .

وقابلتنى أسيوط ببرود ، لا حركة ولا شيء جديد ، نفس الرجل
الواقف فى ميدان المحطة يبيع السميط والبيض والطعمية ، عربات
الأجرة الكالحة اللون ، عربات الحنطور وحصان تجمع حوله الذباب،
وراديو المقهى المقابل بصوته المرتفع ، ومجموعة فوانيس الاضاءة
الحديثة وسط الميدان وعربات النقل الضخمة تسد الطريق دون
حركة ، وثلاث فتيات فى الزى المدرسى وأحد الصبية يجذب منى
الحقيبة

ـ أوصلك يا أستاذ ؟

ـ طيب ..

وخطف الصبى الحقيبة واندفع أمامى حتى ابتعد ، فأسرعت
خلفه حتى لحقت به ـ وكنا قد عبرنا الميدان فوقف يسألنى :

ــ لوكاندة يا أستاذ ؟

لم يصدمنى برود أسيوط فى استقبالها بقدر ما صـــدمتنى كلمات هذا الصبى ، فقد أشعرتنى بالغربة ، وأحسست بأننى مجرد مسافر يقضى ليلة ويعود ، وتنبهت الى صوت الصبى وهو يعيد الى السؤال فصحت فيه :

ــ شارع افريال ..

ــ نركب ؟

ــ لاداعى ..

مرة أخرى سار الصبى أمامى حاملا الحقيبة ولكن بسرعة أقل، وسرت خلفه وأنا أفكر فيما أجده فى المنزل بعدما انقطع ما بينى وبينهم طوال الأيام التى سافرت فيها . هل أجد خطابا من أمى؟ وهل سافر طلعت الى بعثة ؟ وفاطمة ، هل سالت عنى ، هل هى تجلس الآن فى شرفتها تنتظر عودتى ، ولكنى لم أخبرها بموعـد عودتى كما لم أخبرها بسفرى ، وشعرت بالشـــوق الى رؤيتها والحنين الى أحضانها ، وطافت بى ذكرى زياراتها لى ، وهل هى تحس بهذا الشوق مثلى ، ربما تثور لأننى سافرت فجأة ولمأخبرها فكيف أطيب خاطرها ؟

هديه .. هذا هو المهم .ولكنى لم أذهب الى مكان يشـترى منه شىء ، الصحراء لايشترى منها ولكنها تأخـــذ منك العرق والدموع وأحيانا تأخذ كل شىء ، الروح والجسد ، وربما باعت لك ،أحيانا .. سرا ثمينا أو أملا أو حلما .

وصادفت محلا فى الطريق ، سرعان مادلفت اليـــه وانتقيت بسرعة شيئا يصلح ودسسته فى جيبى وعدت أواصل السير .

ولكن بعد أن استقرت الهدية التى اشتريتها فى جيبى ،تنبهت الى نفسى ، وراعنى الشوق لرؤية فاطمة والحرص على عدم اغضابها

وارضائها بالهدية ، احسست أننى تسرعت ، وأننى انزلق الى بحر عميق لا أجيد السباحة فيه ، وحاولت تقليب الأمر على مختلف جوانبه ، الذى بينى وبين فاطمة شىء بعيد عن الحب ،شىء أوجده الفراغ والشباب وخيالات حب فى عقول محبوسة ، والسير فيه مدعاة للوقوع فى براثن غول لا أقدر عليه . ولكن الرغبة الجامحة فى رؤيتها والتلهف لسماع صوتها والحنين لأحضانها ، أليست حبا ؟ وهى .. أيمكن أن تكون هى الأخرى فى حلم أم أنها تحبنى حقيقة ؟ .

ـ على الشمال يا أستاذ ..

ـ حاضر ..

وقف الصبى ينظر الى مبتسما بعد أن وضع الحقيبة على الأرض واضعا يديه وسطه ،ولمحت فى نظراته بعض الخبث فصحت فيه مهددا :

ـ لن أعطيك أجرا اذا لم توصلنى حتى باب المنزل .

فحمل الصبى الحقيبة مرة أخرى متأففا وهو يقول :

ـ ونمرة البيت ..؟

ـ ٣٢ ..

ـ حاضر .. اتفضل ..

وحينما أشرفت على المنزل ، أنتشيت فى فرحة ، وطيف فاطمة وحرارة جسدها بين أحضانى فى الصباح تجعلنى أسرع الخطى وأقفز السلالم فى نشاط وكأننى أتعجل رؤية فاطمة .

وفتح لى طلعت الباب ورحب بى فى فتور لم أكن أتوقعه ، ذهبت الى حجرتى ووضعت حقيبتى وعدت بسرعة لأجده جالسا يفحص بعض أوراقه ، وبادرته بأسئلتى :

ـ فيـه جوابات من البلد ؟

ـ لا ..

ـ فيه ناس سألوا عنى ؟

ـ لا ..

ـ انت مشغول ؟

ـ جـــدا ..

ـ تصبح على خير ..

ـ وانت من اهله ..

ـ اى خدمة قبل ما انام ؟

ـ لا ..

تركته ، غاضبا ، لأعود الى حجرتى ، وانا قلق لا اسـتطيع النوم رغم ارهاقى الشديد وحاجتى الى الراحة ، وزاد فى قلقى ذلك الوجوم على وجوه زملائى فى المسكن ، يتحركون فى صمت ينظرون الى فى عتاب أو لوم لا ادرى سببه ، احساس ما فى نفسى بأن شيئا هائلا قد حدث أثناء غيابى ، ولا أجرؤ على السؤال المباشر عنه ، وحاولت أن اتخيل ما يمكن أن يحدث ولكنى فشلت وحاولت النوم متناسيا الأمر كله ، ولكن ساورتنى الشكوك وانهكت أعصابى كثرة التفكير فى أشياء محزنة ومؤسفة ، وكلما أغمضت عينى ، أشعر وكأن الموت يقترب منى فأصحو خائفا واظل متيقظا وكل حركة يفسرها خيالى بشىء مخيف .. ذئاب مفترسة بأنياب طويلة تعوى فى جوع وحشى مقتربة من أمى التى تصرخ فى خوف ، وانا مقيد الى فراشى لا اقدر على الحركة ، وثعبان هائل يتلوى حول قـدمى وأحس ببرودة جسده ، ثم أعاصير ورياح ونيران تشتعل فى كل شىء وطلقات رصاص وعيون باردة وأيدى ممدودة وأشجار لهـــا

ايدى بشر ، عشرات من الأيدى الممدودة ، وظلام قبر يبتلع جسدا ابيض ، وخيالات أخرى كثيرة تناثرت حولى أتشبث فى فراشى واجذب ارادتى لأصحو وأقاوم ما وسعنى ذلك ـ أقاوم شيئا فوق طاقتى وارادة التحرر من قيود وهمية تثقل على صدرى صارخا .

الرحمة ، الرحمة ياربنا ، ولكن لا ، الدنيا لاترحم بل تهصرنا ثم تضحك علينا ، الدنيا تتسلى ، وتضحك علينا ، تمتصنا لتعيش هى ، اللعنة عليك يادنيا ، ولكن .. لا .. فالدنيا لاتستحق أيضا اللعنة ، انها تستحق ان نقاومها ، أن نرغمها ، أن نقول لها : لاوألف مرة لا ، لن تأخذى منا بقدر ما نود أن نعطيك اياه .

- ١٢ -

وكان الصباح ، صحوت تعبا مرهقا ارتدى ملابسى فى لهفة للخروج ربما أصادف فاطمة أو أتلقى منها تحية أو مجـرد اشـارة تبعث الدفء فى قلبى ، أسرعت بالخروج ، هربا من شىء ما أشعر به ، وهبطت السلالم مترقبا ظهور فاطمة وتلكأت أمام باب شقتها علها تخرج ، راودنى التفكير فى العودة الى المنزل وانتظارها ،ولكنى خشيت الرجوع وترددت كما أن التزام الذهاب الى العمـل بعد طول الغياب يضطرنى الاسراع الى هناك ، والشوارع دبت فيهـا الحياة ، طلاب يتجمعون حول عربة فول ، فتيـات فى قوافل ذاهبات الى مدارسهن ، بائع الجرائد يعلن عن قيام ثورة فى جنوب افريقيا وجريمة قتل فى دمنهور .. الشارع يدب فى حيوية .

رأيت عربة مغاورى الذى يصلح الأقـلام أمام مبنى الادارة وبادرنى بالتحية فابتسمت فى وجهه ، ارتقيت السلم فى تكاسل حتى وصلت الى الطابق الأول ، حيث مكان عملى ، دخلت الصالة وهى طويلة على جانبيها مكاتب الموظفين تفصلهم جدران زجاجيـة شعرت أن أعين الزملاء تراقبنى واضطربت فى مشيتى حتى وصلت الى مكتب زميل لى كنت أحب الجلوس معه ، وجلست وسرعان ماأتى باقى الزملاء يسلمون ويحيون ويسألون عن غيابى ويستفسرون عن سببه وشعرت ببعض الراحة ، فقد وجدت اهتماما لم أجده مع زملاء المسكن . وجلست أتحدث معهم حول الرحلة التى قمت بها ، حتى جاء من يبلغنى برغبة المدير فى رؤيتى ودهشت لأن هذه

أول مرة يستدعيني فيها منذ نقلت الى هنا .. وشعرت بالألم في مؤخرة راسي واحسست بالخوف وداهمني وهم بأنهم سوف يطردونني من العمل ، وانني ربما أكون قد ارتكبت خطأ ما ، ولكني تراجعت عن هذا التفكير ، فلم أقم بأي عمل ولم يسند الى أي عمل حتى أكون عرضة للخطأ ، كما أن غيابي كان بناء على أجازة مستحقة لي ، وذهبت لمقابلته أخيرا .

واستقبلني المدير وهو يبتسم ثم أخذ يسألني عن سني وخبرتي وبلدي ومؤهلي العلمي وأنا أجيبه بحرص ودقة محاولا الظهور بمظهر يرضيه متمنيا عملا يتناسب مع كل هذه الأسئلة ، وأخيرا ابتسم الرجل ، وكان بدينا دائم الحركة وهو يضع يديه حول صدره وقال :

ــ يبدو أنك موظف مثقف ، وعلى هذا فسوف يكون عملك متناسبا مع ثقافتك ..

فأحنيت راسي في تواضع أو متظاهرا بالتواضع وهمست :

ــ العفو يا افندم ..

ومرة أخرى فرد ذراعيه وراح يعبث بأوراق على مكتبه ، واسترعى انتباهي غلظة أصابعه بدرجة كبيرة وخاتم رفيع مفروز حول أحد أصابعه ، وابتسمت . .

ــ في الأول سوف نسند اليك عملية بسيطة ، وبعد فترة قليلة يسند اليك عمل أهم .

واجبت وما تزال أصابعه تثير خيالي :

ــ حاضر يا أفندم ..

ــ وحسن افندى سيتولى تدريبك على العمل الجديد .

وكان هذا ايذانا بانتهاء المقابلة فأشار على بالانصراف . . سحبت افكاري وذهبت الى مكتب حسن أفندى .

بحجرة بها خمسة مكاتب وخلفها دواليب مفتوحة، ونافذة يدخل منها مربع من أشعة الشمس وثلاثة شبان فى مجادلة عنيفة .. وتقدمت من حسن أفندى الذى رحب بى واجلسنى بجواره ، وفى خلال ما يقرب من ساعة أخذ يشرح لى مهمتى فى مكتبه واخيرا أشار الى أحد المكاتب محددا لى مكانى ــ وكان حسن أفنـــدى يستعمل كلمات رنانة كبيرة صعب على فهمها بسهولة ، أخيرا نظر الى ساعته وقال :

ــ العمل سوف يعطيك خبرة أكثر .

ــ انشاء الله ..

ــ غدا تأتى الى هنا وتمارس عملك الجديد .

ــ حاضر ..

الثورة تنبع من القلب .. القلب الشاب الشجاع وليست من اى قلب ، ولهذا تقل الثورات لأن القلوب الشابة قليلة .

ــ ولكننا نحن أيضا شباب .

ــ لا .. أنتم جالسون حول الموائد بعضكم يشرب خمراوبعضكم يشرب حلما ، والآخرون ينامون ولا يسمعون ..

ــ والسحابة الخضراء تمر ولا تراها ..

ــ لأنكم لا تنظـرون .

ــ والمصانع تنمو وتطرح قناديل ومداخن ، ولا نشمها . .

ــ لأنكم تقبعون داخل أدراج الخشب وتضعون حـول أنوفكم ملفات قديمة .

ــ العالم كله يتعلم ويسير ويأتى الينا ، ويتعجبون ، واضعين

ايديهم على أوراقهم يسجلون . البلد تكبر تنمو تصرخ .. اسمعوا صوتى .. ولكننا لانسمع ..!!

ـ أنتم تتدحرجون على النجيل ، وتنقسمون الى ابيض واحمر .. ثم تتناحرون حول أشياء لا معنى لها ، وتتصايحون حتى يطغى صراخكم على صياح بلدى .

ـ نحن نســـجل ..

ـ من فضـــلك .

ـ نعم ..

ـ أريد أن تستلم منى هذه الخطابات ، عشرة ، مرفقات عشرة بتاريخ اليوم ، وقع من فضلك .

ـ حاضر ..

ـ شــكرا ..

ونظرت الى الأوراق ، عبارة عن خطابات واردة من هيئات ، حسنا الخطوة الأولى التوقيع باستلامها ، ولكن الثانية ،نعم تذكرت اعطاء كل منها رقما ، نبدأ الآن فى الترقيم ولكن ما هذا ..؟

ـ من فضـــلك ..!

ـ نعـــم ..

ـ أريد أن تستلم هذه ، سبعة ، مرفقات لاشىء ، بتاريخ اليوم وقع من فضلك ..

ـ حاضر ..

ـ شــكرا ..

مرة اخرى أوراق ، الخطوة الأولى التوقيع باستلامها والثانية الترقيم .. واحد ، اتنين ، تلاتة ، أربعة ، .. وصرخ صوت :

ـ العمل يجب أن يتناسب مع الثقافة والمقدرة الذاتية ..ولكن صوتا آخر صاح بغضب :

ـ اكتب الأرقام جيدا ، أنت مثقف لا تخطىء .

ـ حاضر .

سيدى هل يمكن أن أذهب معك الى جزيرة الأرقام ، لا تقـل لا يمكننى أن أصعد بسرعة أنا أرى السلالم كل يوم ، ويمكننى أن أتسلقها ، جزيرة الأرقام تحوم حول ثلاث من الجزر الذهبية حول محيط من السماء الصافية ، يجلس فوق كل جزيرة طفل أشـقر فى يده قيثارة يعزف عليها وينشد شعرا رائعا ..

ـ لا ..

ولمـاذا ؟ فوق المحيط جزر أخرى ، أعطنى واحـدة منها ، لا تقل لا هذه المرة ، أصابع المدير غليظة وسوف تموت لأن الخاتم الأصفر يضيق ، ويضيق أكثر كلما مرت الأيام حتى يأتى اليـوم الذى تموت فيه الأصابع وبعدها يصبح المدير بغير أصـابع .. مسـكين ..

ـ من ؟

ـ أنا ..

ـ ارجوك وقع ودعنى أنصرف .

ـ حاضر ..

ـ ثلاثة ، ومرفقات مائة وعشرون ، أرجوك راجعها جيدا ..

ـ حاضر ..

ـ مسئولية .. لا تغضب .

ـ لا .. أنا لا أغضب .

ـ أنت مثقف .

ـ شكرا .

الأرقام مهمة جدا ، وأحيانا يكون لها رنين ، وأحيانا أخـــرى تغنى ، بل وكثيرا ما تموت وهى تغنى تحت وطأة قلم أحمر غبى فى أصابع غليظة .

يمكننى أن أضع أصابعى فى أذنى ولا أسمعك تغنى لأن صوتك قبيح ، والسحاب يتراكم وأصحاب الملابس الخمراء غاضبون ، وأصحاب الملابس البيضاء يضحكون ، وبعد برهة يتغير الحـــال فيبكى الضاحكون ويضحك الباكون ، وأحيانا الألوان تموت أيضا تحت الأقدام وتنغرس بين العشب والجماهير تصرخ .. تدوسها وتصرخ .. مندفعة ، هاتفة ، صائحة ، مصفقة ، وأحدهم يهتف:

ـ ثلاثة لواحد ، ثلاثة لواحد ..

ـ نعم .

ـ أرجوك ، استلم ، ثلاثة ، مرفقات واحد ، وقع من فضلك.

ـ حاضر ..

ـ التـــاريخ .

ـ حاضر ..

ولكن فى المرة القادمة سأقول لا .. وسأقذف كل الأرقام فى قاع بئر ، وبعدها لن يجدوا أرقاما ويتحيرون ويسألون أين الأرقام؟ ويطول بحثهم عنها حتى يتعبوا .. وبعدها يجلسون فوق الجدران ويضحكون وهم يقولون فى سعادة :

ـ الا تعلم فقد ذهبت الأرقام ولم تعـــد ! !

- ١٣ -

آسف يا أمى ، ولن ينفعك أسفى بشىء ، ولكنها كلمة سخيفة زرعوها فى رؤوسنا ونحن صغار حينما تخطىء يجب أن تقــول آسف ، ولكن لماذا أخطأت ولأى سبب وكيف ؟ غير مهم .. المهم هو الأسف : أن تعلن أنك آسف ..

فأنا آسف يا أمى ، آسف لأننى تركت قريتى ، تركت حقلك الصغير شريحة الأرض الخضراء التى تعبرها الفيوم فى لحظة يسيرة من الزمن ، وتركتك تغوصين فى طينها حتى تنبت شيئا يصــلح للبيع ، وبثمن وجودك فى الطين طوال حياتك ، دخلت المدرســة وسرت عبر الأراضى الخضراء كلها حتى المدينة حتى المدرسة لأنفق ثمن ما أنتجه الطين ، وطوال وجودى فى المدرسة ، وطوال وجودك فى الطين تعلمت أشياء كثيرة كانوا يلقونها فى عقولنا ، وكلهــا أشياء لا رابط بينها وبين شريحة الأرض الصغيرة . وتهب المظاهرات تطلب الحرية ، ويسير الطلبة فى شوارع المدينة هاتفين صــارخين، وأنزوى وزميلى فى ركن من الشارع حتى تبتعد المظاهرة لنــذهب وننتظر القطار العائد الى قريتنا ، لأننا وافدون من الخوف ، الخوف من الضياع ، من الغوص فى الطين . وتغلق المدرسة أياما لنعيش فى القرية لا عمل لنا .. لانستطيع أن نفعل مثل ما يفعله الآخرون فى القرية حيث يعملون فى الحقول ، يغوصون فى الوحل والطمى لأننا « أفندية » ولا نستطيع أن نفعل مثل ما يفعله « الأفنــدية » لأننا أولاد الفلاحين .

نعيش في القرية أيام الاجازات ، والأيام التي تغلق فيها المدرسة ونحن على الهامش ، مجرد رقم فقط . في القرية لانصلح للعيش وفي المدينة لا نصلح كذلك . ماذا نفعل اذن ؟ نحلم وتنزوي الحقيقة وراء الحلم ولكنها لاتختفي ، فقط كلما تضخم الحلم تضخمت الحقيقة .

آسف يا أمي ، كم أنت طيبة ، وكم أود أن أفعل ما يفعله الآخرون في قريتي ، ولكنك رفضت .

وحينما ذهبت الى المدينة ، كنت أفنديا مثل أهل المدينة ،ولكن في أعماقي ، رجل القرية وحينما ذهبت الى الصحراء اعتدل الأمر شيئا ما ولكنهم لم يتركوني . اتوا بي مرة أخرى الى المدينة .

وأصوات مختلطة في الشقة ، أناس غرباء لم أرهم من قبل، جلست ودارت عيني حولهم متلمسا طريقا للمعرفة . درت أبحث عن طلعت ولكنه جلس صامتا ، ثم تحدثوا الى في أدب ، وطلبوا مني أن أذهب في المساء لمقابلة الست لبيبة في منزلها الجديد على الناصية . وتركوني ومضوا .

استهدرت الى طلعت وكان ينوي التسلل الى الخارج ، أمسكت به ، والظنون تتسلل الى عقلي ، ماذا في الأمر ، وما الذي تريده الست لبيبة أم فاطمة ومتى انتقلوا الى منزل جديد ؟ الحقيقة مهما كانت قبيحة يجب أن أراها .

ـ طلعت ؟

ـ أهدأ ، وأولا ، يجب أن تطلب منهم أن ينقلوك الى مكان آخر

ـ لماذا ؟

ـ حاولت أن أخفي عنك الأمر ، ولكن يبدو . .

ـ ماذا ؟

ـ الأمر قد أصبح في يدها الآن ..

ـ من ؟

ـ أم فاطمة .. حبيبتك أو بالمعنى الواضح ..

ـ تـكلم ..

ـ لا ، لاشيء ، المهم الآن أن علاقتك بفاطمة قد علمت بها أمها ومن يومها وانتقلت الأسرة كلها الى منزل جديد .

ـ وأنا ..

ـ اما أن تتزوج بالفتاة أو ترحل فورا ...

ـ ولكن هذا ظلم !!

ـ فعـــــلا ..

أمى ..

الشبكة تسقط حول الصياد ، والقطة تقترب من فأر المصيدة والذبيحة تدخل المذبح ماذا أفعل ياطلعت ؟

ـ المواجهــــة ..

ـ لقد خانت العهد وروت لأمها كل شيء في غيابى ، لم تنتظر حتى عودتى ، دفعت الى أمها بالحقيقة وبكت ، وأنت .

ـ لم نكن نعلم .

ـ قولوا شيئا . .

ـ قلنـــا كثـــيرا ..

ـ وماذا قلتم ؟

ـ اعتذرنا لها ووعدناها باصلاح الخطأ .

وفى المساء ذهبت . كنت مشتاقا الى رؤية فاطمة ، ودفعنى الشوق الى الذهاب والمغامرة بمقابلة الأم تجذبنى أيضا ، ماذا تقول الست لبيبة ؟

المنزل جديد ، حديث البناء ، فى آخر الشارع قرب مسار القطار ، مكان باب لم يوضع ، سلالم حجرية ملطخة بالجير ، رائحة الشحم والزيت ورطوبة البناء الجديد ، باب الشقة مرتفع .. بيد مرتعشة وضعت اصبعى على الجرس ففتحت لى خادمة صغيرة : ما أن رأتنى حتى رجعت مذعورة تنادى على سيدتها التى أسرعت بالحضور مهللة مرحبة ، الست لبيبة بدينة الى حد كبير وبيضاء ، جلست أمامى ، وتتحدث معى برقة وتسألنى عن بلدتى وعائلتى ومرتبى ومدخراتى وأسئلة أخرى كثيرة لا أذكرها ، ولكنها تكفى لتكوين صورة كاملة عنى ، ولم تحضر فاطمة ولم ألمح لها أثرا ، والوقت يمضى ، والأم تسأل وتروى بعض ذكرياتها عن المرحوم ، تفاصيل الخطوبة ، والزواج أيام زمان وأنا حائر ماذا أقول أو أفعل ، هل أودعها وانصرف أم أنتظر ؟ وهى لم تشر الى موضوع فاطمة بشىء .. وبعد برهة صحبتى لترينى الأشياء التى اشترتها من أجل فاطمة ، السجاجيد وأطقم الشاى وأدوات المائدة والمفارش ولا تتعب من قص التفاصيل .. هذه من معرض الوزارة وتلك من واردات أوربا .. أما هذه فقد اشتراها ابن أختها لفاطمة من ألمانيا ، وأما هذه المفارش فهى من صنع فاطمة نفسها ، وانتهت المعروضات ونجلس مرة أخرى لترينى صور فاطمة وهى صغيرة أو وهى فى المدرسة .. ووقع بصرى على صورة حديثة لفاطمة وقد وضعت المساحيق وتزينت وبدت كأنها احدى عرائس المسرح الشعبى .. واضطررت للانصراف لتأخر الوقت ، ولكن كان معى دعوة للحضور على الغداء .

وحضرت على الغداء ، ثم مرة أخرى على العشاء .. وتكررت الزيارات وأنا لا أفهم لماذا أنساق وراء دعوات أم فاطمة ، ولا أقف موقفا حازما فى هذه المسألة ؟ وفى كل زيارة أو دعوة ترينى أم فاطمة شيئا جديدا يخص حياة ومستقبل فاطمة ، هذه القطع الذهبية التى سوف تتزين بها فى الفرح ، وتلك ملابسها ، وهذا

مبلغ مدخر في البريد لزوم أولادها ، وفاطمة نفسها لا تتكلم حينما أذهب ، وبى رغبة أكيدة لرؤيتها والتحدث اليها ، أجدها جالسة صامتة ، تنطق فقط ببضع كلمات ردا على سؤال أو تحية أوملاحظة من جانب أمها .. أين فاطمة التى صعدت الى حجرتى رافضة كل تقاليد الأسر المحافظة فى الصعيد .. قاذفة بكل القيم التى تحرص عليها الفتاة فى الظاهر على الأقل ، مندفعة فى أحضانى لتجذب اليها رجولتى وتلهبها لترتوى ، أين فاطمة التى باحت لى بحبها رغم أننى لم أفعل ؟ انها الآن مجرد فتاة خالية من الجمال والأنوثةتجلس بجوار أمها ، وأشعر بالقرف ، وأحس بالخيبة .. وأود أن أفر هاربا من هذا القيد ، لا ليست هذه عروستى التى أحلم بها .. أين هى من جمال سالمة ؟ فتاة الصحراء الجميلة الرشيقة المندفعة فى أدب ، المرحة فى وقار ، لا ، ليست هى حلم أيامى ، أين هى من فتاتى فى القرية .. افرق واضح بين جمالها وجمال « كوثر » التى دفعت فى سبيلها بكل مدخراتى ومصروفى ثمنا لحجاب .. أين هى من جنيتى المسحورة التى تأتى الى فى ظلام الليل وتبتسم لى ، وتهدهد مهدى وتغنى وتناديني ، وتبث فى روح الانسان العاشق ، فاطمة انها ليست جميلة ولا ساحرة .. انها مجرد فتاة ابنة امرأة بدينة تدبر لى شيئا ، وأمضغ طعامى فى حسرة ليتحول طعم الخبز الى طعم مر المذاق وحبات الأرز ،وصدر دجاجة ، وقطعة لحم وسكين بارد وأفعى تتسلل الى طبقى لتلتهم قطعة اللحم ، وأدوس بالسكين على رأس الأفعى .. آه .

ــ احذر .. لقد جرحت أصبعك .

وتقهقه السيدة البدينة ، ويهتز جسدها ، وتهبط يدها بورك الدجاجة وفمها يحاول الحفاظ على ما فيه من بقايا طعام وتقول :

ــ الحب يشغل الفكر ..

وأعود الى غرفتى أهى ندم .

وفى احدى الأمسيات ، ونفر قليل تجمع فى منزل الست لبيبة ، والخادم الصغيرة تروح وتجىء مهرولة وفى يدها أكواب الشراب ، وزغرودة من داخل المنزل ، وحديث يدور حول تقسيم الشوارع الجديدة - أعطونى خاتما وضعته فى اصبعى ، والخاتم يبرق ويحك جلد اصبعى .. واصابع فاطمة مرتعشة باردة رفيعة خاتمها يتموج فى يدها ، وضعت يدى فى جيبى .. وقالوا لى :

- مبروك ..

فسحبت يدى من جيبى وقلت :

- حاضر .

- ١٤ -

وفى الصباح ، ، اذهب الى مكتبى وهناك يتكلمون عن الزواج واحوال المعيشة ، وأشعر فى حديثهم بشىء من الحسد يأكل كلماتهم ، على حظى الطيب لزواجى من أسرة كبيرة .. يملك افرادها بعض المناصب الهامة وبعض الأرض ، وأشياء أخرى تسندهم فى الحياة وتنفع بناتهم فى هذا الزمن . ويظل عزت زميلى فى المكتب يتحدث عن أسرة فاطمة ، حديث العارف ببواطن الأمور ويقسم أنهم عاشروه وعاملوه كأنه واحد منهم ولهذا فهو يعرف عنهم مالا يلمسه ولا يعرفه غيره من الناس حتى ولا الأقربون لهم . ثم يهمس لى بصوت خفيض ونظراته الضيقة تأكلنى :

ــ حظك من نار ..

وانصرف عنه لأعود الى عملى .. وأوراق كثيرة أخذت أرقاما، وأخرى فى طريقها لحمل الارقام ثم المرور فى طابور طويل من الاجراءات ، ويبدو أن عملى مهم فلولا الرقم الذى تحمله الورقة ما استطاعت أن تلحق بهذا الطابور .. أن الرقم يعنى الحياة بالنسبة لها لتدور فى دورة لانهاية لها ، وأحيانا تسقط بعض الأوراق شهيدة من كثرة الدوران ،تلف الورقة .. وتتناقلها الأيدى وتتنازعها الملفات وتقلبها الأصابع، حتى تتآكل ويرق جسدها وتمرض لتسقط صرعى فى أحد الأدراج ، ويسرع أحد السعاة ويقفل الأدراج ، وتشعر الورقة بالسجن يضيق فتصرخ .. النجدة .. النجاة .

ـ لماذا تأخرت يا حبيبتى ؟ اين أنت ، لقد خلفت وعدك لى وتركتينى نهبا للألم والصداع ، الا يمكن أن تعودى ؟

ـ أين ؟

ـ جزيرة السبع بنات ، الزرع الأخضر ، ونسـمات الحب واغنيات الجنيات ..

ـ كل ما أطلبه أجده ؟

ـ كل الأمانى والأحلام يزرعونها فتنبت نبتا أخضر ، ويظل النبت يرتفع حتى السماء ويقترب من سحابة الجنيات الأربع .

ـ وبعد ذلك ؟

ـ تعرف الجنيات أن فى الوادى شابا لم ترهبه الأحلام دخل المدينة على حصان أحمر وفى يده مصباح ينشد ، نشيد الحب والسلام .

ـ لا سلام ولا كلام ..

ـ خـير ..

ـ اين الأوراق يارجل ..

ـ الأوراق !

ـ نعم الأوراق التى وقعت باستلامها منذ أسبوع ؟

ـ هنا بالتأكيد .

ـ لقد تعبنا فى البحث عنها .. آسف سأخطر المدير .

لا .. لا .. أرجوك ،سوف أبحث مرة أخرى ، لا أريد مزيدا من المشاكل ، انها هنا بدون شك ، طالما أنها أخذت رقما ، فلا بد وانها موجودة ، ولكن العمل كثير كما ترى ، انتظر قليلا .

أمى بعيدة هناك ، فى الأرض تدك الطين بقدميها لتصنع قوالب الطوب وتبنى بيتا جديدا فى انتظار طفلها المدلل .. المثقف الذى

ذهب الى المدينة ليتعلم ويعرف السر ويأخذ مالا ويعود ليعطي الأم ثمن الطين ، ويعطي القرية ثمن الانتظار ، ولكن الطفل ذهب الى المدينة وعرفت المدينة سره وأكلته وهرسته في تروسها ، فلا يعرف كيف يعود .. الا اذا تحول هو الآخر الى ترس .. ولكنه لايستطيع لأنهم في القرية صنعوه من طين لين تعب من كثرة الانبات . نعم لا يستطيع .

ـ لا تستطيع !

ـ نعم ..

ـ اذا سأخبر المدير ، انها أوراق هامة .. وأنت غير أمين على عملك ..

ـ أرجوك .. انتظر ..

ربما تنتظرني أمي ، وربما لاتنتظر ، ولكن الأكيد أنني سأعود ولكن متى ، لا أعلم ؟ لأن التروس جائعة ودائما في حاجة الى الالتهام . الا اذا أصابها الخلل ، أو الملل حتى اذا أصابها ذلك فسأظل معلقا بينها حتى تدور ، وانتهى اليوم .

اقترب مني عزت ونحن نهبط السلالم وسألني :

ـ ذاهب الى بيت أم فاطمة ؟

ـ لا ..

ـ سألوا عليك في الصباح عندما كنت في مكتب المدير .

ـ ربما أذهب في المساء .

والشارع مزدحم وعزت لايتعب من الحديث ولا من الشراء ، نقف ليشتري برتقالا ، ثم يعجبه منظر فاكهة أخرى ، ثم يسمع ضجيجا حول بائع وبسرعة يعطيني ما اشتراه ليندس بين الواقفين وبعد برهة يخرج وفي يده شيء آخر اشتراه .

المنزل كما هو ، رائحة غير طيبة ، الحجرات رطبة ، الفوضى تشمل المكان ، والمطبخ ليس به ما يؤكل .. لماذا لا يتزوج الانسان طالما أن الزواج سيساعده فى تنظيم حياته ويبعد عنه شبح الجوع الى أشياء أخرى تنقصه .

وجلست جائعا ، أفكر فى فاطمة ، انها طيبة وهادئة ، وأنا ليس لدى ما أفخر به ، وليس لى أقارب من ذوى المكانة ، وليس لدى المال لكى أختار وأفاضل ، ثم انها تحبنى . ان كنت أنا لا أشعر بالحب نحوها فيكفى أنها تحس به نحوى .. وجمالها فى روحها، لايهم جمال الخلقة بقدر مايهم جمال الخلق ، ولكن الأخلاق أيضا أمور نسبية ، ألم تكن تصعد الى شقتى كل يوم ؟ من يرشدنى الى الصواب .. دون غرض ، من يصفعنى حتى أصحوا ! ،

ودفعنى القلق ، والرغبة فى تبين الحقيقة ، الى الذهاب الى الحقول .. وذهبت شارد اللب ، غارقا فى تفكير أجوف ، أمضغ أحلامى وذكرياتى ، أود أن أتحدث الى الانسان ، أقول له كل ما يخطر فى عقلى .

ووقفت بجوار جرار على جانب الجسر ، وشاب أسمر يصلح به شيئا ــ وترددت فى التحدث اليه ولكنه صاح بى مرحبا ، فدنوت منه أكثر وأخذت اتفحص الجرار باهتمام ظاهرى ولكن دون اهتمام حقيقى ..

ولكن محرك الجرار دار بسرعة وفجأة فقفزت بسرعة مبتعدا فى خوف ، ونظرت ناحيته فوجدته مايزال يعبث بما فى داخل الجرار ولم يتحرك فخجلت من نفسى ورجعت أرقبه من جديد ، ثم استدار الرجل وسألنى :

ــ ناولنى المفتاح من فضلك .

وأشار باصبعه الى الأرض .. ثم انحنى مرة أخرى داخل الجرار ونظرت حيث أشار فوجدت بعض الأدوات مما يستعمل فى الصيانة وكانت لدى بعض الخبرة بها منذ أن كنت أعمل فى بعثة التنقيب ، فأسرعت وناولته ما طلب ، ولكنه رده بسرعة وهو يصيح :

ـ الفرنساوى من إفضلك ..

وانحنيت غاضبا من لهجته الآمرة ، ولكنه صاح مرة أخرى ، قبل أن ألتقط المفتاح المطلوب :

ـ بسرعة أرجوك ..

حينما أردت مناولته المفتاح ، أشار بيده وهو مازال منحنيا وقال بلهجة سريعة بها نبرة خوف :

ـ أوقف الجرار .

وتحركت بسرعة الى حيث توجد لوحة ادارة الجرار، ولا أدرى كيف أوقفت محرك الجرار لم أفكر ، هبطت ثانية فوجدت دمايسيل من اصبعه ويقوم وهو يحاول ايقاف نزيف الدم .

ـ شـــكرا ..

شعرت بشيء من الفخر ، واخذت أربط له أصبعه ، وجلست بجواره وقد أحسست بنوع من التقارب ، وأقسم الرجل أن يصنع شايا وهو يقول :

ـ لقد أنقذت يدى من اصابة خطيرة ، لو لم توقف المحـــرك لضاعت يدى .

وفى خلال تناولنا للشاى ، تحدثنا عن أشياء كثيرة ، أسأله ويجيب وضحكاته تعلو مرة وتخجل مرة ، ويستعيذ باللهويتحسس أصبعه وأنا سعيد بلقائى معه استمع اليه باهتمام .

وتكررت زياراتى (لدسوقى) سائق الجرار ، الرجل الريفى الطيب الذى لاينسى مطلقا أننى أنقذت يده من ضياع ، حينما أفرغ

من طعامى أذهب الى الحقول وأبحث عنه ، أحيانا أجده جالسا يستريح بجوار جراره وأحيانا أخرى يجوب حقلا مقلبا تربته ، سعيدا بصوت آلته وهى تهدر بقوة فى رواحها وغدوها .

وكم كنت سعيدا حينما ركبت بجواره أول مرة ، وأخذ يدربنى على قيادة الوحش الضخم « فهد » كما يسميه ، ويشير بيده، من هنا تنطلق روح الجرار فيهدر فى قوة مندفعا الى الأمام ، ومن هنا يمكن التحكم فى اتجاهه ، قلل طعامه فيقلل من سرعته ،«وفهد» لن يعصى لك أمرا ، ان قلت يمينا فليكن كما ترغب ، وضحكت فهذه أول مرة أتعلم شيئا حقيقيا وعلى الطبيعة ، ذهبت الى المدرسة ما يقرب من ثلاثة آلاف يوم وذهبت الى الجامعة نصف هذا العدد ولم أتعلم الا بالكلام فقط ، يقولون وأنا أحفظ كلامهم أو يكتبون وأنا أكرر ما يكتبونه ، وفى آخر العام يتوقف الأمر على الحظ ، فالسؤال لا يأتى فى كل الكلام ولكن فى جملة أو عدة جمل من هذا الكلام كله ، فان كان الحظ سعيدا استطعت الحفاظ فى ذاكرتى على هذه الجملة أو تلك الجمل وكتبتها ، كتب لى النجاح . وان ساء الحظ وخانتنى الذاكرة ولم تحتفظ بتلك الكلمات القليلة لكان على أن أعيد العام مرة أخرى ، والسبب الكلمات اللعينة التى لم تلتصق فى ذاكرتى وهربت منى .

وضحكت فسألنى دسوقى :

ــ خير انشاء الله ..

ــ خير يادسوقى . فى المدرسة وصفوا لنا الطائرة ومناخ سيبيريا وأرجل الدجاج بالكلام فقط ، ويقولون أفرض أن لديك صندوقا من التفاح به ثلاثون تفاحة وأكلت ثلاثة وأعطيت كل أخ من أخوتك الثلاثة ثلاثة فكم عدد التفاحات التى تبقت معك فى الصندوق .

ــ وكنت تعرف الاجابة ؟

ـ لا يادسـوفى .

ـ المسألة سهلة . فلماذا لاتعرف الاجابة .

ـ لأنه لم يكن لدى تفاح .

ـ حقا .. لماذا يعقدون المسألة ؟ لماذا لايقولون افرض أن لديك جميزا أو ليمونا أو أى شىء مما نراه فى أرضنا ؟

وتوقف « فهد » وهبطنا من على ظهره ونحن نضحك ، ودرت دورة كاملة حوله أتحسسه فى اعجاب ، ثم ودعته وودعت دسوقى ورجعت .

- ١٥ -

وفوق السطح ، كانت النـاس تضحك ، ورجل ضخم الجثـة يقف على منصة عالية بعض الشيء يقلد الدجاجة وهي تضع البيضة، ثم يقلد الكلب الصغير ، وأخيرا راح يقلد القرد ، والنـاس تصفق طربا ·· وتضحك ، لا أرى الا أفواها مفتوحة بشراسة ، بوحشية ·· كما يضحك الانسـان البدائي الذى كان يضـحك بقوة بعنف ويفتح فمه ليظهر ما في داخل جوفه ··

الرجل الضخم ما يزال يقلد الغوريلا ·

وأنوار ساطعة وأصوات وزغاريد ، وصهيل خيل ورائحة ورود ورجل صعد يغنى موالا حزينا عن الحب الذى ذهب والأيام الجميلة التى لن تعود وسلامات بالاشارة وبالأيدى تنادى :

ـ مبروك ··

ورفع الرجل عقيرته وصاح بأعلى صوته مؤكدا أن الليلة ليلة فرح ، وصعد آخرون يسخرون ويسبون ويتضاربون والنـــاس تضحك في اصرار عجيب ، وبرودة تسرى الى من أسفل المقعـد ، ورعشة عنيفة تمسك بى ، ورغبة فى القيىء ، وفتاة صغيرة ترقص والعيون تكاد تأكلها والأكف تصفق بعناد ثم أعلنت الست لبيبـة عن موعد العشاء ·

ترك الناس ما هم فيه واستداروا حيث أشـارت السيدة ، بعضهم لم يستطع كبح جماح نفسه فهب مسرعا ·· والبعض تباطأ

فى غير رغبة منه ، والمائدة تحمل أشياء كثيرة سوداء كالحة ٠٠ أو سوداء لامعة ٠٠ وأكوام من الأرز وغيرها من الخبز ، تلال من اللحوم، بقرة تصرخ تضرب بحافرها رافضة تقديم رقبتها للجلاد الذى لعق السكين بلسانه وضحك ٠٠ ثم صاح :

ـ تقدمى ٠٠

وجذبنى زميل لكى أتقـــدم الصفوف وفى ذراعى ، كما تقضى التقاليد المتحضرة ، عروسى الجميلة فاطمة ، ودفعنى آخر ، ودفعتها مجموعة من الفتيات حتى وقفنا الى جوار المائدة ، وهناك أحسست أننى تحررت من نظرات الناس ، أخيرا وجدوا شيئا يتلهـــون به بعيدا عنى ٠٠ فمنذ دخولى السرادق المقام فوق السطح وأنا موضع أنظار الجميع ، يقلبون النظر بينى وبين فاطمة وعلى المائدة تركونى فى اهمال ، وجدت نفسى واقفا فى وحدة بينهم ، فأنظارهم معلقة بما ليس فى أيديهم ، وأيديهم مشغولة بما فيها ، وأفواههم تبتلع بسرعة طالبة المزيد ٠ وأنا واقف وكأننى فى الصحراء لا أحد يقول خذ وأمضغ أو خــذ فى يدك ٠٠ وارتبكت وحرت فيما أفعــله ٠٠ نظرت الى فاطمة ، التى بدت قبيحة الى درجة كبيرة ، وتحـولت الى جسد مرتعش مملوء بالعروق الزرقاء ٠٠ وجهها أصفر ، والفستان متشابك متداخل مرتفع من أمام ركبتها ، سافر عن معظم صدرها ويديها ، ثم تكور فى عدة دوائر وتشابك فى عدة خطوط عنـــد وسطها حتى أحالها الى ثمرة من ثمرات الكرنب المهمل فى الحقول ، وشعرت بالحزن عليها وعلى نفسى ٠

هذه هى عروستى ٠٠ انها على ضعف جمالها كانت أفضل فى ملابسها العادية مما هى عليه الآن فى هذا الزى ، بوسعى أن أفر ٠٠ أن أذهب وأركب قطارا عائدا الى بلدتى ألوذ بجدار طاحـونة قديمة ، تاركا هذا القبح لرجل غيرى ٠ ولكن ما ذنبهـا هى ؟ لم تولد حسب ما تشتهى ، ربما كانت تود أن تكون رجلا أو قردا أو

مجرد قطة ، ولكنها ولدت بنتا فقيرة الجمال ودخلت الشفقة الى قلبى ورثيت لحالى وحالها ، ومددت يدى بقطعة بطاطس ودسستها فى فمها وأنا أبتسم وتناولت واحـــدة أخرى ووضعتها فى فمى ، ولكنى لم أستطع مضغها وصوت ساق يقول :

ـ ألف مبروك •• ألف مبروك ••

وصنية فضية تبرق فى حزن فوقها كأسين من شراب وردى اللون قربها من وجهى فى برود وقال :

ـ اتفضل يا أستاذ ••

وأخذت كأسا وارتعشت يدى ، وقطعة البطاطس ما زالت فى فمى تسد حلقى ، ماذا أفعل وصاح الرجل مرة أخرى :

ـ ألف مبروك يا عروسة •

فناولت الكأس ، للعروسة ، ونظرت الى الساقى فى حيرة •• الذى اقترب أكثر والصينية تلمع تحت الأضواء والـكأس يبرق ، دسست يدى فى جيبى حتى عثرت على ورقة ماليـة فوضعتها على الصنية بسرعة ، ولما رآها صاح متهللا ، وانصرف •

وارتفعت الضجة قليلا ، وبدأت الأصـوات تجد طريقهـا مرة أخرى حول الأفـواه •• وترددت الضحكات ، وحضر الى زميـلان وجذبانى بعنف الى ركن بعيد إقليلا ، ومد أحـدهم يده الى بشىء وقال :

ـ خد •• اشرب •

ـ أنت غريب جدا ..

أنا غريب فعـــــلا ، كل هؤلاء لا يهمهم أمرى ، بقدر ما يهمهم التهام ما يقدرون عليه من طعام دون مقابل وقضاء سهرة ممتعـــة والاستماع الى المنشدين والمطربين ، ثم التحدث عن كل ما شاهدوه

طوال أسبوع بأكمله معددين العيوب والنقائص ، ذاكرين الطعام الذى لا طعم له وصاح أحدهما :

ـ اشرب ، وبعدين تعرف ٠

وتناولت الكأس ، كانت بها شرابا أسود اللون ، ولم تنفع توسلاتى اليهما بل راحا يقنعانى بأنه شراب منعش لا ضرر منه مطلقا ، لقد أرسلا فى طلبه من القاهرة خصيصا لليلتى هذه وشربت الكأس وكأنها لهيب مشتعل ، فاندفعت متملصا منهما ، هاربا من هذا الشراب النارى ٠٠٠ وقابلتنى سيدة كانت فيما يبدو تتلصص على ما نفعله فنهرتنى قائلة :

ـ أقعد جنب عروستك ٠

وجلست ، كان المقعد باردا .. أحسست بشيء يغزنى ، وصاحت بعض النسوة ، وابتسمت أخريات والتمعت العيون التى ألهبتها تلك الأكلة الدسمة ، وشراب وزع خفية ، ورنت ضحكات رفيعة وبدأت رائحة الأنثى تسيطر على المكان وصعد على المنصة شاب أسمر وراح يلقى نكات تتناسب وهذا الجو المغلف بأبخرة الشراب والطعام ورائحة الأنثى حتى منتصف الليل ٠

ـ ألف مبروك ٠٠ عقبال البكارى ٠

ويتسلل المدعوون بعد أن يشدوا على يدى ٠٠ وأنا أتمتم بأى شيء ٠

وأم فاطمة تدور حول الناس ٠٠ تصعد وتنزل ، وتبتسم وتغضب ، وتقول كلمات غير مفهومة ولحمها الأبيض المتهدل يرتعش حول جسدها الضخم ٠٠ وانفض الجميع ولم يبق الا زميلان وبعض أقارب العروس ، واقترح زميل أن يلتقط بعض الصور ثم أخذ يشكلنا مجموعات ، قف بجوار فاطمة هكذا ، اجلس وهى تقف ثم قف وهى تجلس ، ابتسم لها ، ضع يدك حول خصرها ٠٠ لا ٠٠

يجب أن تضعى يدك حول كتفه ٠٠ قف بجـــوار أم عروستك ، ابتسم ٠ يجب أن تبدو فى الصورة مبتسما ٠٠ لم يبق الا صورة واحدة ٠ نأخذها للجميع ـ ألف مبروك ٠

وانتهى زميلى ، وانصرفنا أنا وزميلاى الى منزلنا بعد أن انتهت ليلة عقد القران ٠

وسرعان ما صـــدمتنى رياح باردة حينما خـرجت من المنــزل وأحسست ميلا للبكاء ، ولـكن عينى ضنت بالدمـــع ، حاولت أن أجرى ولكن قدماى لم تسرعا .. حاولت التحدث الى زميلاى ولكن لسانى لصـــق فى حلقى .. ورأسى تصلبت وعينـــاى توقفتا عن الرؤية ، ومشيت وكأننى مسحور أو نائم أو مخدر ، رأسى ثقيـــلة وفمى جاف ٠٠ أنقل خطواتى بصعوبة ، وفى داخلى شخص آخـر يبتسم فى خبث ٠٠ وأحيانا يرقص وهو يخرج لسانه ، وأحيـــانا يقفز من طائرة ثم يختفى وسط مجموعة من الثعـابين التى تتلوى حولى ، وتوابيت موتى ، ومقابر مفتوحة ، ونار تشتعل ، وأمى تقف وسط النار تبكى ٠٠ وأنا مشلول أصرخ ولـكن صرخاتى لا تنطلق ٠٠ أندفع لأنقذ أمى ولكننى مقيد ٠

أمى الحبيبة ٠٠ لا تذهبى يا أمى ، أنا هنا أنقـذينى ، تخلصى مما حولك وتعالى ٠٠٠ لا تتركينى أموت يا أمى ٠٠ أنا أخاف الموت ، لا أريد أن أموت الآن ، دعيهم يتركونى أعيش سنوات أخرى لأصنع شيئا لك وللناس ، فقط سنوات يا أمى ٠

والبحار هائجة والمركب يبتعد بها ، أمى ، أمى ، وصوت دقات عنيفة وضحكات مرتفعة وطلعت يصيح :

ـ أين أنت يا رجل !!

ونظرت الى طلعت ، ووددت أن أضع رأسى على كتفه وأبكى ، أنظر يا طلعت لقد ذهبت أمى فى قاع البحر والتهمها الحوت ٠

آسف يا أمي لم أخبرك بزواجي الا الآن ، كنت متـرددا حتى اللحظة الأخيرة ، ظللت مترددا حتى جاء المأذون وأخذ يدى وأعطانى القلم لكي أكتب أسمى وكتبت على ورقة ٠٠ والورقة تعنى ارتباطى بفاطمة الى الأبد ، لا أعتقد يا أمي ، أنها مجرد ورقة مثل آلاف الورق الملقى فى الشوارع وفى أدراج المكاتب ٠

كان على أن انتظر شهرا أو شـــهرين ٠٠ حتى تعد أم فاطمة المسكن الملائم لنا ٠ وهذا الاعداد بالطبع ، يحتاج سلسلة من عمليات الاختيار والبحث ٠٠ ولكن الست لبيبة لا تريد مساعدة من أحد ولا تدخلا ٠٠ فهى ترتب لكل شىء ترتيبا خاصا ، الشقة موجـــودة فى نفس المنزل حتى لا تبعد فاطمة عن عينيها ، والأثاث يحتاج الى مهارة فى الشراء والبحث والمفاصلة والمفاضلة وما الى ذلك مما يلزمه الخبرة التى لا تتـوفر فى أمثالى من الشـباب ، والمفروشات بعضها جاهـز بالفعل والآخـر جارى تصـــنيعه ٠٠ وانهمكت الســيدة فى التجهيز والاعداد ، ليل نهـــار ، بالليل تجلس لتحسب كل قرش صرف ٠٠ وبالنهار تفاصل وتعاين ٠٠ تغضب تارة من النجار وتخاصمه لاعنة جدوده ، فرحة به سعيدة بحظها معه لأنه رجل شـــاطر أمين ، تارة أخـرى ، ولم يسلم منها بقيـــة الصناع الذين انهمكوا فى صـــناعة الأشياء الأخرى ٠

وفى كل يوم أذهب لزيارة فاطمة ، أمكث هناك ساعة أو بعض ساعة .. ولا تسألوننى ماذا أريد ؟ هل أحب أن يكون الأثاث حديثا أو تقليديا . وهل هذا يصلح أم لا يصلح ؟ . وأنا كذلك لم أسألهم ، أعطيتهم نقودا كانت معى ، وهى كل ما استطعت جمعه فى خلال مدة عملى مضـــافا اليها بعض النقود التى استطعت اســـــتدانتها من من زملائى ، ومع هذا فقد كان المبلغ لا يكفى لشراء أثاث حجـــرة واحدة ، واستطاعت الست لبيبة أن تدارى هذا العجز ووضـــعت من عندها مبالغ أخرى حتى أصـــبح مبلغا لا أطمع فى جمعه طوال

حياتي ، وكان المهر الذى رآه الناس ، مهرا لفاطمة ، متناسبا ومظهر أسرتها ..

وفى خلال الأيام التى سبقت الزفاف .. كنت أضحك وأرقم الأوراق ، واستمع الى قفشات الزملاء ، ثم اذهب الى المنزل أتناول طعامى على عجل وأسرع الى (دسوقى) أتحدث اليه وأساعده فى العمل على الجرار ، وكانت هذه الساعات من أجمل ساعات يومى ، نلهو بالحياة ولا يهمنا أمرها كثيرا ، هو يقص كل الحواديت التى سمعها وحفظها وأنا أقص عليه قصص الرحالة الذين اكتشفوا منابع نهر النيل وداروا حول العالم يشـــقون بحر الظلمات باحثين عن المجهول .. وهوسعيد بما يسمعه لأول مرة .. وأنا فرح بأقاصيصه عن الجنيات وعرائس البحار وعجوز القرية ، وعبيط الجرن ، وابنة العمدة وملك الجان ، ونظل نقص ونحكى حتى يسدل الظلام أستاره على الحقول ، فأتركه لأعود الى منزل فاطمة .

منذ أصبح زواجى بفاطمة أمر حتميا ، لم أجلس اليها وأحدثها وتحدثنى .. تبدو سعيدة فى صمت لا تتكلم ، وأجلس أنا الآخـر بدون رغبة فى الحديث ، وتأتى الأم وتجلس لتقص ما فعلت وما يجب أن تفعله وكيف أن هذا الـرجل الذى يبيــع أدوات المطبـخ انتهازى وبائع القطن وبائع السجاد كذلك ، رغم أننا فى بلاد السجاد، كلهم انتهازيون وطماعون وتظل تتحدث هكذا لمدة ما يقرب من الساعة ثم تنصرف بحجة أنها نسيت شيئا ، وتنصرف ولكن أشعر أنها ما زالت جالسة بيننا ، فلا أشعر بالرغبة فى الجلوس . وأنهض لأسير عبر الشـــــوارع أسال نفسى .. هل هذا هو الزواج أم اننى فعلت شــيئا غير ملائم ، ســقطت فى بئر اســود حالك الســواد مملوء بالثعابين والحيات ، وامرأة جميلة تســير أمامى فى الشــارع ، لو أننى وضعت يدى على أردافها .. ملابســها ضيقة تبرز جسدها كحية راقصة تتلوى ، وأتحسس الحية ، انهـا

دافئة صوت المارة وحزن نائم فى أعماق منذ الأبد ، وتقاليد ونظم التربية تكبلنى بحديد من قيم الحياة ، وتمنعنى وتشل حركتى وتخنق الرغبة فى أعماقى ، ولكن المرأة تضحك ، فحدثتها وأجابتنى بقبلة فأسرعت الى أحضانى ، وسرنا أنا وهى فى شارع النيل حتى شجرة كبيرة ، وجلسنا فى ظلها نلتهم الحب •• وتتعرى المرأة ويبدو جسدها النابض بالحياة ، والسمرة والسمنة تجعلان الأرداف مكورة والنهود جبلا من الكرز الناضج ، والشفاة قطعتين من البطارخ ، والجسد يتلوى فى رغبة ، واقتربت لألمس حبات الكرز ، خشن ، شعر المرأة مجعد ، أصابنى برعشة ، صرخت فى بائع الفول ، سبها الرجل •• حاولت أن أصرخ فيه ، دفعنى الناس الى اليسار وصدمنى آخرون • ودفعونى الى اليمين ، بائع ملابس للأطفال صـــاح فى وجهى :

ـ بخمسة قروش •

رأيت أسنانه ، مسوسة سوداء بها ثقوب ، استدرت بسرعة ، لطمنى كيس يحمله رجل ، ترنحت مسك بى رجل عجوز وقال :

ـ أنت أعمى ••

وصرخ الأولاد ، ونفخ البهلوان فى زمارته وعدت الى المنزل ••

ابن الطين والخوف والرغبــة أنا •• ابن امرأة تعيش حتى وســطها فى الوحل تهرس روث البهـائم وقشر النبات الناشف بأقدامها لتصنع وقودا تطهى عليه طعامها •

يا جنيات الريح ، يا ملكات الفضـاء ، ويا زوابع الخريف ، أحملينى فوق أجنحتك حتى البرج التاسع فوق القمر الاسود ، لأنام فى كهف المائة عام وأصحو لأجد القمر قد أصبح أرضا ، والأرض استحالت الى قمر لا يعكس أشعته بل يحتفظ بها لنفسه يرسلها الى سكانه ، الى داخل نفوسهم فيصبح الانسان شفافا مثل الملاك ،

ويتحول الناس الى ملائكة يأكلون الفاكهة من فوق الشجر ولا يقربون روث البهائم ولا لحومها ٠

وصاحت الجنيات الأربع من فوق السحابة الداكنة التى تعبر محيط الأحلام الواقع شمال بلدتنا :

ــ سوف ندور حول الأرض ألف دورة ثم دورة ٠ فاذا كانت الدورة الأولى بعد الألف الأولى نرسل لكم سلما ويصعد الينا فتى منكم فنعطيه مفتاح المحيط ٠

واستدارت الجنيات وهن باسمات ٠٠ ولكن احداهن قالت :

ــ ولكن الويل لكم أن أخطأتم فى عد الدورات أو تناسيتم السلم وذهبت الجنيات ، وعلينا أن نبدأ العد ، عد دوراتهن حول الأرض وننظر الى السماء فى انتظار السلم ٠

صفير القطار مختلط بدقات الطبول ، نزلت من الدرجة الثالثة ، ترتدى السواد ، فى يدها سلة صغيرة ، خلفها ثلاثة وجوه جامدة فى أيديهم عصى غليظة ، حول أكتافهم عباءات سوداء وفى أيديهم سلال ٠ خلفهم فتى قصير ببدلة زرقاء يبتسم فى بلاهة ، أشار بيده ناحيتى ، أسرعوا نحوى ، الوجوه الجامدة ، صحت مندفعا :

ــ أمى ٠٠٠

عروقهـا بارزة ٠ يداها باردتان ، وتمسـكان بى ، نظراتهـا جامدة ، والسلة تها طعام نظرها أصبح ضعيفا ، تحسـستنى وهى تسعل ثم قالت :

ــ دثرنى يا ولدى ٠٠

أمى حاولت أن تحضر ليلة الزفاف ٠ أرسلت لها لتأتى ، صرخت فى الأوراق ، بكيت ، وملأت القلم وكتبت رسالة الى أمى ٠٠ ربما يسعدها رؤيتى وأنا أتزوج يوم الخميس القادم ٠

ـ انتظر يا أخى ..

ـ استلم ووقع فقط .

ـ وهل هذا هين يا سيدنا ..

ـ نعم .. مثل كل يوم .

ـ والعدد هل هو مضبوط .. المرفقات سليمة ؟ .

ـ أنت مثقف و ..

لا .. لست أنا .. لن ترشونى بهذا اللقب .. ســـأرفض الاستلام .

ـ سأخبر المدير .

ـ لا يهمنى ..

وأسرع شخص ثالث .. وقال :

ـ لا تؤاخذه اليوم زفافه .. وهو فى حالة غير طيبة ..

ـ ألف مبروك .

ـ طيب .

ـ لا داعى اليوم للاستلام .. وألف مبروك مرة أخرى .

ـ طيب .

وتظاهرت بعدم المبالاة ، وانهمكت فى العمل أحاول أن أدارى اضطرابى ، وتقدم منى أحد زملائى وكان متقدما فى السن الى حد ما وأكن له بعض الحب والاحترام ، وجلس بجوارى يردد الكلمات المعتادة فى مثل هذه الحالات :

ـ ألف مبروك .

ـ شكرا .

ـ أنت مستعد طبعا ، هذه الليلة فاتحة باب جديد ، ادخلها ، وأنت قوى ..

ـ انشاء الله ·

فاطمة كانت تتسلل ، وتصعد السلالم فى تلصص ، وما أن أسمع نقرات أصابعها على الباب حتى أفتح لها وتدخل مندفعة الى حجـــرتى ، وأغلق ورائى باب غرفتى لنحلق معا فى عالم حسى ، ورأيت علما أحمر ، يرفرف فوق الشرفة ، ثم دخل العلم وارتمى تحت قدمى وغطى أرض الحجرة ·

ـ تذكر أن الداية تعمد الى جرح الفتاة بأى طريقة لتحصـــل على نقط الدم تلوث بها قطعة قماش أبيض تنشرها الأم أمام أعين الأهل والأقارب والحساد وتصيح وهى تزغرد هذا دليـــل شرف ابنتى ، فلا تجعلهم يفعلون ذلك ·

ـ حاضر ·

ـ يجب أن تتأكد أنت بنفسك من ···

من ماذا ؟ كانت تأتى الى حجرتى وان خطر ببال هذا الرجل هذا الخاطر الذى يراوده لكان الأمر سهلا وميسورا بل تفسيرا لما حدث · الرحمة يا قوم أنا لم أرد بكم سوءا ولم أنو لكم ضررا ·· لماذا تقذفوننى بصفائح الدم ·

ـ تذكر كل هذا ـ فقد حدث لأحد أصدقائى ·

مرة أخرى يتحدث هذا الـــــرجل ، أنه يقذفنى بكلماته وأنا لا أستطيع الهروب ··

ـ وكانت المداعبة ثقيلة بعض الشىء ، فاندفع الدم بعنف ، وراحا يحاولان منع تدفقه ولكن دون جدوى ، لم تنفع قطع القطن ولا الملابس فى ايقافه وحملها بين يديه وهى أشبه بجثة هامدة غارقة فى بحر من الدماء ووضعها فى حوض الحمام ·· وسكب عليها الماء محاولا أن يوقف الدماء ولكن لا فائدة اختلط الدم الأحمر بميـــاه

الصنبور وطفى عليه ، وأصيب (فخرى) بذعر هائل ماذا يفعل ؟ وتلقف سماعة التليفون يستدعى طبيبا صديقا يستنجد به .

ـ ما ذا فعل الطبيب !! .

ـ بعد مجهود كبير أوقف النزيف وأنقـــذ روح الفتاة التى كانت ستضيع فى مداعبة شيطانية .

واستأذن زميلى وانصرف ، تركنى فى دوامة من رياح حمراء ، تجذبنى الى وسطها ، وفاطمة تسبح فى الدماء ، تشهق ، تصرخ ، انقذونى ، ولكن كيف انقذها ؟ وأعاصير الدماء تحاصرنى ، و (فخرى) يضحك من بعيد مشيرا الى فى تهكم و ، طلعت يجذبنى ، يشدنى .

ـ لا .. يجب تأجيل الزفاف الليلة .

ـ ماذا تقول ؟ .

ـ لا أستطيع .

ـ كل شىء معد ولم يبق سوى ثلاث ساعات .

وجذبنى طلعت من خلف مكتبى وهو يقول :

ـ العمل انتهى وكل زملائك انصرفوا ، هل أنت مريض .. ؟

نظرت حولى فوجدت الحجرة خاوية ، مكاتب وحيدة حزينة ، ذهبت الى المنزل وجدت أمى وأقاربها ، أخذوا يحدثوننى ، أتوا بطعام ، راحت أمى تغرى طلعت بالحديث معى ، صنعت لى كوبا من الشاى .

الشاى لونه أحمر مثل الدم ، عيون أمى حمراء ، غلاف كتاب طلعت أحمر .. الشمس تميل الى الغروب ، لهـــا شراع أحمر ، انطلقت قذيفة مدفع اخترقت زجاج النافذة ، حطمته ثم اخترقت صدرى وانفجر الدم فوضعت يدى على صدرى لأكتم الدماء ولكنها اخترقت يدى وسالت على الأرض ولوثت المقاعد والفراش وغطت

كتب طلعت وأوراقه وبحوثه ثم ارتفعت حتى صـــدر أمى التى شهقت وبكت ·· ودخلت فاطمة منفرجة القدمين يسيل منها الدم ، وفى عينيها نظرات حزينة واقتربت منى ووضعت يديها حول رقبتى وأخذت تضغط بعنف ، أنها ستقتلنى ·· صحت :

ــ أنت مجنونة ··

ــ الحق على أنا ، أضبط لك الكرافت حتى تبدو أنيقا ·

ــ شكرا يا طلعت ·

وجاء موعد الذهاب الى بيت العروس ، كانت بى رغبة فى الفرار ولكن طلعت وأمى يدفعاننى بقوة ، يجذبنى طلعت من يدى ، ومجموعة صغيرة من النسوة وبعض الرجال تناولوا معنا العشاء ·

وبدون طبول أو مزامير صعدت مع فاطمة الى مسكننا الجديد فى المنزل ، مجرد زغاريد أطلقتها امرأة بدينة بسمات باهتة على وجوه الذين التهموا الطعام ·· فرحة حائرة لا تستقر على وجـه أمى ، ارهاق أصفر على وجه الست لبيبة ·

صمت هائل مطبق على الجدران ، قطع الأثاث الجديدة تلمع فى حزن ، ومائدة الطعام الطويلة تبدو كتابوت فرعون ضعيف ، وحوله المقاعد الخضراء اللون تبدو هى الأخرى كشواهد لتوابيت حدم وحاشية فرعون ، وبعض الصور المعلقـــة حبيسة اطاراتها الكالحة ، صورة لمصارع ثيران يمسك فى يده وشاحا أحمر ويلوح به أمام الثور ، وانقض الثور على الوشاح ولكن المصارع الرشيق انفلت بسهولة . ورفرف الوشاح الأحمر مرة أخرى وكان أكبر من ذى قبل واتسع ·· فاغتاظ الثور ومزق الوشـــاح الى نصفين وضحك المصارع ورفع قسمى الوشاح ساخرا من الثور الغبى ، وارتفع صياح مجنون ، هادرا من صفوف المتفرجين يهللون للبطل،

وقذفته النسوة بباقات الورد ـ وانتعش المصارع فى كبرياء ورفع وشاحه الأحمر في الهواء مثيرا الثور الذى اندفع هذه المرة مهاجما ، ولكن المصارع كان أسرع منه فأغمد سيفه حتى مقبضه فى كتف الثور ، الذى تلوى من الألم ثم سقط على الأرض غارقا فى دمه وســــال الدم ليملأ كل أرض الحلبة ثم يطفو حتى أغرق كتل المتفرجين .

- ١٦ -

حينما تشرق الشمس على ربى قريتى الرابضة هناك بجوار النهر ، ويمتلىء الجو برائحة زهور البقول ، وينهض النوم الجاثم على العيون ، وتذهب الأشباح فتختفى خلف السحاب ، وينصت الأطفال الى نداءات أمهاتهم فى خبث وهم يحاولون التظـــاهر بالنعاس ..

حينما تستقبل (مسعدة) ذلك الضباح وهى تحمل جرتها وتعدو لتلحق الفتيات وتبتسم لخاطرة تمر لحظة برأسها . كأنها حلم ليلة أمس .

ويستقبل البائع أول عميل .. وهو مازال يدعو الله ويسبح باسمه ، وتبدأ قريتى يومها كالمعتاد .

أبدأ أنا الآخر يومى بألم شديد يشبه ألم الاحتصار ، واليوم مثل الغد ، مثل الأمس لا جديد ، والعقل يسبح فى الفراغ ، والحلم يصطاد الفراغ ، والنفس كســـيرة وكأنها محملة بأطنان الذنوب والهواجس ، والقلب حزين وكأنه عشق الحزن ، والشاى والطعام ميتة على المائدة والملابس مشنوقة على المشاجب .. هذه سترتى السوداء معلقة من أكتافها ، والأكمام فارغة ساقطة مدلاة دون حياة والحذاء يرقد أسفل المقعد يتدلى منه الرباط يستجدى أصوات مكتومة من الشارع ، والحر يرسل اشاراته الصباحية معلنا حربا ضروسا ..

ذلك يومى ، فى بدايته ، واعود بعد الظهر الى الأشياء نفسها وكلما خرجت فى الصباح ينتابنى احساس بالذنب ، الذنب فى حق نفسى لماذا تزوجت ؟ لماذا اندفعت مسلوب الارادة الى زواج اعتقد فى نفسى بأنه لن يسعدنى ؟ لماذا اقبلت على الارتباط هكذا بعقد لا احترمه كثيرا ؟ .

تزوجت ومضى على زواجى أكثر من شهر وكلما تقدمت الأيام، احسست أكثر بأن زواجى غير موفق . ولكنى مسلوب الارادة متردد لا اجرؤ على فعل شيء .. تزوجت دون رغبة حقيقية أحيانا حينما اجلس مع نفسى اجد اننى محظوظ فى زواجى ، واظل أعدد محاسن زوجتى ومآثرها محاولا مقارنتها بمن هن أقل منها ، ماذا يفعل هؤلاء الأزواج مع زوجاتهم وهم ليسوا أقل منى وابرهن لنفسى اننى بالفعل محظوظ ـ وان حظى السعيد هوالذى دفعنى الى ذلك الزواج . ولكن ماان أنتهى من هذه النتيجة حتى يعاودنى الاحساس بالفشل وعدم الثقة بهذا الحظ السعيد.

ولكن ما هى الحياة ، ولماذا نولد ؟ وما هى العلاقة بين الولادة المتكررة للانسان واستمرار الحياة ، لابد أن هناك ارتباطا بين ذلك التكرار والموت ، اما ان الحياة تتلهى بنا لتضحك ، أو انها تسخرنا لتستمر ، سواء أكان علينا أن نجلب السرور الى الحياة أو نساعدها فى البقاء والاستمرار . .فان علينا فى الحالين دورا هاما نؤديه .

ولكن ما دورى أنا ؟ ! هل سأظل معلقا مثل بدلتى السوداء فى مشجب الحياة لا نفع لى ؟ طالما أنا جالس هكذا فى مكانى قابع خلف الدوسيهات فى الارشيف أضع الارقام على الأوراق ، واحلم بالجنية التى تأتى وتختارنى من بين كل هؤلاء الناس لكى أصنع التاريخ ! ..



ومع هذا فالجنيات تحتاج الى نوع من الجهد لكى تأتى ، ربما تأتى بالسحر وهذا يحتاج الى طقوس طويلة مملة .. أو تحتاج الى تعبد وصوم وطقوس صوفية مرهقة ، وسواء اكان حضورها بالسحر أو بالتصوف أو بشيء آخر يحتاج الى جهد وانا لا اميل الى بذله ، فاحتمال حضور الجنية ، احتمال ضعيف جدا بل مجرد توقع حضورها أمر مبالغ فيه ، فلابد أن عم « مغاورى » ، حينما سخر جنية البحر فى اعماله كان ذلك بعد أن بذل الكثير من الجهد وهو المعروف دائما بالصبر والجلد ولم يترك حقله أبدا فى أى لحظة من نهار أو ليل .. تل انه وقف لفيضان النهر وتحداه ومنعه عن أرضه وصنع بجهوده الفردية سدا ترابيا فى وجه النهر وأرغمه على احترامه • نعم « مغاورى » قبل حضور الجنية كان مخلصا فى عمله مقبلا عليه .. وبحضور الجنية لم يتكاسل ويترك لها كل شيء ..

ـ الشاى برد ..

وأتى صوتها وكأنه جاء من بعيد ، نظرت اليها ، زوجتى الجميلة ذات الشعر الأسود ، معبودتى ، صفراء فى سمرة حزينة فى يأس ، ورفعت فنجان الشاى لأبتلعه مرة واحدة .. ولم أرد فعاودت السؤال مرة اخرى :

ـ انت سرحان ؟

ـ لا شيء ..

لا شيء ، مجرد دوران من عقلى .. فلابد للعقل أن يدور ويفكر .. هذه مهنته ويظل هكذا يدور ويفكر ، ربما يفكر فيك أنت ، أو فى أكلة ، أو فى الموت ..

ـ تأخرت .

ـ فعلا .

وجذبت بدلتى من على المشجب .. ووضعتها على حافة المقعد ها هى جثتى .. وزوجتى تبكى . كم أنا سعيد ببكاء زوجتى انها انفعلت اخيرا بشىء ..

— تشرب قهوة ؟ ..

— أشرب ..

فى المأتم يشربون القهوة بدون سكر .. ولا أدرى السبب أو العلاقة بين شرب القهوة السادة والمأتم . من الجائز انها عادة فقط وجريا وراء تلك العادة سوف أشرب القهوة على جثتى ولكنى لم أمت بعد .. وارتديت ملابسى وشربت القهوة ..

الشارع ساكن .. مجموعة من فتيات المدرسة الثانوية يسرن فى بطء ويتحدثن فى سرعة وحماس ، ما أجمل بنات المدارس فى زيهن المدرسى « انهن يجعلن الشوارع جميلة ويشعن فيها الحيوية بابتساماتهن الرقيقة الصبوح ، وحديثهن يغمر الشارع بالحياة ، كيف كانت تبدو زوجتى وهى مرتدية مثل هذا الزى ؟ وكان شكلها وهى تتأبط حقيبة المدرسة وتسير وسط مجموعة منهن ؟ ! .

عندما كنت فى المدرسة الثانوية ، كانت كل آمالى محصورة فى التعرف على طالبة صغيرة لطيفة جميلة فى مدرسة البنات التى لا تبعد كثيرا عن مدرستى . وظللت طوال سنواتى الخمس فى المدرسة الثانوية أمنى نفسى وارسم الخطط ، فى خيالى فقط للحصول على ود هذه الفتاة .

وكنت أراقب .. وانا فى هذه المرحلة من الدراسة ، عربة يجرها حصان ابيض تأتى الى باب المدرسة وهى تحمل خمسة من الأخوة اكبرهم فتاة شقراء ، وجهها مثل وجه ملاك الخير ، كانت طالبة فى المدرسة الثانوية للبنات ، والأربعة الآخرون زملاء

لى فى المدرسة . وفى كل صباح أضطر الى القفز من القطار حتى يمكننى الذهاب الى باب المدرسة قبل وصول العربة لأرى معبودتى الجميلة .. ويبدو أن سائق العربة لا حظ ذلك .. فعى احـــدى المرات تعمد أن يصدمنى فسقطت على الأرض .

وصاح زميلى عبد الله :

ـ أين انت ؟

متى ؟ اليوم أم أمس أم منذ عشر سنوات ؟ كنت فى الدنيا ، ولكن عبد الله صاح مرة أخرى :

ـ سيادة المدير سأل عنك عشر مرات .

ـ لماذا ؟

ـ ادخل بسرعة .

واندفعت الى مكتب المدير متأثرا بـــكلام عبد الله وبلهجته الجادة ، ولكنى لم أكن متيقظا تماما لهذه المقابلة .

وما أن رآنى المدير حتى انهال على بكلمات لم اتبينها تماما ، ولكن لاحظت وانا احاول جاهدا أن أفيق ، انه منفعل وغاضب واننى لابد قد فعلت شيئا هائلا ، لقد حطم اهلك الالواح ياموسى وداسوا عليها وعبدوا العجل واكلوه .. ولكنهم سيندمون .

وامرنى بالتوقيع على ورقة كانت أمامه ، فوقعت منـــدفعا ايضا لأتخلص من هذا الموقف ولكنى بعد أن ذهبت الى مكتبى وتحدث الى الزملاء فى العمـــل وأفهمونى حقيقـــة ما حدث بدأت أتبين الأمر ومرارته .

التحقيق .. وربما ينتهى هذا التحقيق الى ادانتى وهـــذا أمر سىء ، ولم تنفع نصائح الزملاء فى تهدئة اعصابى المنهارة . ولم تنجح أقاصيصهم عن التحقيقات وكثرتها وعـــدم اهميتها

والمبالغة فى أمرها فى أن توقف اندفاع افكارى وانهيار اعصابى والأسئلة الهائلة العدد التى تدور فى راسى .

ماذا فى عملى يستحق كل هذا الاهتمام ، مجرد ترقيم الأوراق ؟ بعد كل هذه السنوات من التعليم والدراسة ، وعلم الحيوان ، والنبات ، وعلم النفس ، والرياضيات ، والفلسفة وتاريخ العرب ، وعلم الحساب والجبر ، وآلاف الأبيات من مختارات الشعر الصخرى القديم ، والأسرة الرابعة التى بنت الأهرام ، وحروب رمسيس ، وغزو الهكسوس ، وكم اصبع فى رجل الدجاجة ، ومقدمة ابن خلدون ، ومصر هبة النيل ، ومشكلة تضخم السكان ، ومراجع الأبحاث ، ونظريات أرسطو ، ثم بعد ذلك تخطىء فى ترقيم الأوراق ؟ لابد وأن الأمور غير واضحة ..

ــ سيزيف ، لماذا تحديت كبير الآلهة ؟

ــ لأنه يخطىء يا سيدى ..

ــ ولماذا يخطىء كبير الآلهة يا سيزيف ؟

ــ لأنه كبير الآلهة .

ــ ولماذا هو كبير الآلهة ؟

ــ لأننا اخترناه لذلك .

ــ اذا قد جانبكم الصواب يا سيزيف .

ــ نعم نحن خطاؤون يا سيدى .

ــ وستظل تحمل الصخرة حتى نهاية الجبل يا سيزيف .

ــ حتى اذا بلغتها سقطت ثانية يا سيدى .

ــ لتعود وتحملها من جديد الى قمة الجبل يا سيزيف .

ــ حتى الأبد يا سيدى .

ــ حتى الأبد يا سيزيف .

وذهبت الى المنزل ، ماذا اقول لزوجتى وهى بدون هـــذا الخبر السىء حزينة دائما . شاحبة دائما .

ـ مليكتى الحزينة الرحيمة ، الجلاد يقف بالبـــاب ، وينتظر حكمك ، وقاطع الرقاب يشحذ سكينه ، واعلام الحداد تزال عنها الأتربة ، وموكب الفرســـان يتأهب . مليكتى ماذا أقول لقـــاضى القضاة ؟ .

ـ انتظر . قل له ان ينتظر ..

اسرعت الى الحقول ابحث عن صديقى (دسوقى) ، لعلـى أجد عنده الجواب . أو مجرد ترويح عن النفس ، ولكنى لم أجده فى مكانه المعتاد ، وبحثت عنه طويلا فى أطراف الحقول والححت فى السؤال كانت بى رغبة قوية لمقابلته ، وأخيرا هدانى احدهم الى مكانه ، ونصحنى الرجل ان انتظره فى البيت لأن الطريق اليه متعب ، حيث يقوم باصلاح احدى آلات الرى فى قرية بعيدة ولكنى لم أستمع الى هذا النصح .

وبعد ساعة من السير فى طريق مترب ملتو وسط الحقول . وجدت (دسوقى) منهمكا فى اصلاح الماكينة وحوله بعض الرجال ينظرون اليه بصبر نافد .. فلما شاهدونى مقبلا عليهم صاح أحدهم :

ـ الحمد لله ، الباشمهندس وصل .

وهرول الجميع نحوى ، وقد علت وجوههم الجامدة سرور مفاجىء وابتسامات عريضة ، .. وهزتنى مشاعر هؤلاء الرجـال ولكن صدمتنى الحقيقة فلست مهندسا ، ولا أفهم فى هـــذه الماكينة شيئا ونظرت الى (دسوقى) ، علِه يعرفنى بالقوم ، الا أنه ابتسم وقال :

ـ الباشمهندس من المؤسسة .

ووجدت نفسى محاصرا بنظراتهم وابتساماتهم التى ملأهـا الأمل بحضورى ، ونظرة دسوقى الهادئة ، وصـاح أحدهم فى آخر أن يحضر شايا ، وفى آخر أن يحضر ما أجلس عليه ، وانهمك الجميع فى تلبية النداء بحماس ، وتقدم منى دسوقى باحترام ثم أخذ يشرح لى العطب الذى اصاب الماكينة وكأنه يخـاطب مهندسا بالفعل ثم انتهز فرصة انشغال الرجال ووضح لى الأمر بأنه سهل وليس علينا الا أن نعيد وضع الزيت بين تروس الآلة وتعديل بعض الأسلاك أو استبدالها وهو سيقوم بذلك ، وعلـى فقط أن أتابعه واتدخل بين لحظة وأخرى ، واعترضت لأن هذا خداع وتضليل أناس لا يستحقون منا هذا ، ولكنه اشار علـى بالسكوت واعدا بأنه سيشرح لى الأمر فيما بعد .

ودارت الآلة ، وتصاعد هديرها يملأ سكون الحقول ، واندفع الماء من فمها سخيا كريما ، وهلل الرجال وهم يشكروننا بالحاح ولم نستطع التخلص منهم الا بعد ان شربنا الشاى أكثر من مرة واكلنا معهم ، واخيرا أصروا على أن نركب الحمير ويوصلنا أحدهم الى أسيوط حتى يطمئنوا علينا ورفض دسوقى بقوة أن يأخـذ مليما واحدا أجرا تكريما لحضورى .

وتوجهت الى منزلى ، اسكرتنى كلمة (باشـــمهندس) واسعدنى حديث الرجال وترحيبهم بى وأحسست أننى أعـدت الى نفوسهم بعض الهدوء وأسعدتهم فقدموا لى طعامهم وشرابهم ومرحهم ، وشعرت بأننى صنعت فى الحقيقة شيئا واقعيـا لا خياليا . انسانى مشكلتى .

وارتفع فى أعماقى نداء يشدنى الى القرية ، الى أهلها ، الى آلاتها الحديثة الصغيرة ، وطالما اننا وجدنا فى الحياة سواء شئنا أو لم نشأ .. فانه يتحتم علينا أن نصنع شيئا ، أن نجعـل لوجودنا نفعا ولو قليلا ، وطالمـا أن الميلاد قد حدث بالفعل وأن

الوفاة ستحدث بالتأكيد فان الزمن بين الحدثين لابد وان يصلح لتقديم عرض ما نلهو به ويشاهده الآخرون ، أما وقوفنا هكذا نتساءل فقط فليس له معنى .

وراعنى ، حينما وصلت الى المنزل هدوءه الشديد ، ودفعت باب حجرة زوجتى فلم أجدها ودخلت الى المطبخ فوجدت طعاما باردا وعليه ورقة تخبرنى فيها زوجتى بأنها شعرت بالخوف لوحدتها فذهبت الى أمها .

وتركت الطعام فى مكانه ومزقت الورقة فى غيظ ، وذهبت الى فراشى البارد وأنا أحمل هذا السؤال :

ــ أى عرض أقدمه أنا على المسرح وأى شىء أصنعه أنا بحياتى هذه ؟

- ١٨ -

عندما يأتى الليل ، فى مدينة أسيوط ، تصبح الدنيا رهيبة مخيفة مملوءة بأرواح الشر التى تريد ان تنقض على الانسان الوحيد في مسكنه الضيق بالدور الرابع من عمارة حديثة البناء والنور يختنق ، وطنين فىالأذن وارهاق ركوب الحمار يهز الجسد وعويل ماكينة الرى ، وفراش بارد وغطاء ملون برسوم أزهار صفراء ، وحاولت النوم واطفأت النور .

أنفاس شرير يقترب،يمد يده ليخنقنى ، ويضغط على رقبتى لا أستطيع التقاط انفاسى ، اننى أموت ؟ وافتح عينى بقوة واحملق فى الفراغ المظلم ، ولكن دقات قلبى مازالت تدق بشدة والخوف يملؤنى رعبا وأضىء النور فلا أجد شيئا .

صعدت السلم بسرعة وارتفعت حتى لامست السحابة الأولى بيدى ولكنى ما ان رايتها وسرت نحوها بضع خطوات حتى سقطت دفعة واحدة ، صرخت ولكن صوتى خاننى ، كنت أسقط بسرعة هائلة ، حاولت ان أتشبث بشىء ، وجدت قضيبا من الحديد ، امسكت به واضأت النور .

الحجرة صامتة ، الصمت له كثافة مثل ماء البحر ، والقارب وسط البحر ، وفتاة جميلة تستلقى فى القارب ، اقتربت منها مال القارب وانقلب فى الماء ، صرخت الفتاة ولكن الحوت أخمد

صرخاتها وابتلعها ، أسرعت حتى لا يمسك بى ولكنه يسرع أكثر منى ويكاد يقضمنى بأسنانه .

سافرت حتى الهند ، سحر ومعابد ، ولكن الهند ملأى بالحواة ، والحواة معهم ثعابين طويلة ضخمة ترتفع فى الهواء وتخرج من السلال ثم تنفخ فى وجهى فارتعد وأحاول ان اجرى ولكن الثعابين كثيرة وموجودة فى كل مكان . ولكن طائرا يحملنى الى الفضاء وارتفع وارتفع فى السماء ، وتتساقط الجبال من أسفل وتبدو المدينة صغيرة وواد من الخضرة يضيق ، ومراعى أبقار وأنهار طويلة ملتوية بين الوديان والجبال ، وبحار زرقاء لها رائحة . وبحيرات وفتيات يرقصن حول الماء والطيور ملونة ، واندفع أكثر نحو المجهول وراء الألوان ، ولكن جدارا ، أسود فى السماء يمنعنى من الحركة ، ويجبرنى على الهبوط فأسقط بسرعة وتشتد ضربات قلبى ، ثم أسقط مرة واحدة فى بئر الخوف .

لا فائدة ! يجب أن أظل مستيقظا حتى الصباح ، حتى يمتلىء الشارع بالضجيج وتعلو أصوات المارة بلهجتهم الخشنة ، ربما تبعث الأمن الى نفسى . ولكن ما يزال فى الليل بقية .

ـ يا جنيات الأمل الحلو .. أيمكن أن تحدثننى حتى الصباح أو حتى انام على نغماتكن الحلوة ؟

لا .. لا .. أقصدكن يا شريرات الجبال .. يا آكلات الأمل ابتعدن عنى فلست فى حاجة اليكن .

ولكن لماذا يا شريرات الليل لا تبتعدن أبدا ؟ ان أجنحتكن السوداء الطويلة ترفرف حول راسى بل أحس بلهيب أنفاسكن حول وجهى .

ـ لن نذهب فأنت وحيد ، ونريد التسرية عنك .

ـ لا أريد .. اذهبن فقط حتى أستريح .

ـ ولكنك مستريح فعلا .. ماذا فعلت اليوم حتى تشعر بالارهاق ؟ هل نضب منك العرق ؟ هل فكرت مجرد تفكير فى أن تعمل شيئا ؟

ـ لقد بذلت جهدا كبيرا اليوم .

ـ فى ماذا ؟

ـ فى أشياء كثيرة .

ـ لا .. أنت تكذب .. ولن تخدعنا .. نحن نعلم عنك أشياء كثيرة ، أنت تناجى جنيات الأمل وأنت نائم فى الفراش ، أنت تحلم وأنت جالس فى عملك ، انك محتاج الى خدماتنا .

ـ سوف أنادى جنيات البحار وأصرخ حتى تذهبن .

ـ لن يمكنك الصراخ ، أنت جبان ، أولى بك أن تقتل زوجتك أن تخنقها بيديك .. ثم تصرخ .

ـ ولماذا أقتل زوجتى ؟

ـ لأنها تركتك وحيدا فى ليل بارد كهذا .

ـ حقيقة ، ولكن الأمر لا يستحق القتل .

ـ أنت ضعيف ، بل يستحق ، حتى تجعل لحياتك قيمة .

ـ سوف أقتلها ..

ـ أقتلها وأستريح .

ـ نعم ، سوف أقتلها .

وصرخت شريرات الليل وضحكن فى سخرية ثم صحن وهن ذاهبات :

ــ لن تفعل فأنت تحلم كثيرا .

يا لها من ليلة مرهقة ، شريرات وجنيات وثعابين ، وكل هذا ، لأنني أنام وحدى ، لقد سبق أن نمت وحدى سنوات عديدة . كنت وأنا طالب أستأجر حجرة فوق السطوح وأنام فيها وحدى وليس معى الا النجوم .

في احدى الليالي .. وبعد منتصف الليل تقريبا .. وبينما انا جالس . أحاول .. مراجعة بعض مواد الفلسفة ، سمعت دقا على الباب ، وانتبهت جيدا بعد أن تركت أفلاطون يهذى ، وتكررت الدقات على الباب وأنا متردد هل أفتح الباب أم لا ؟ وأخيرا اعتمدت على القليل من الشجاعة التى أملكها وعلى القليل من المتاع الذى لا يستحق السرقة ، وفتحت الباب واذا بى أجد شابا طويلا نحيفا ، دقيق الملامح شارد النظرات أندفع الى الداخل وجلس على المقعد الوحيد فى الغرفة . اغلقت الباب وجلست على حافة الفراش ، ولم ينطق الرجل وأنا أحاول أن أتذكر أن كان زميلى أو صديقى أو مجرد بلدياتى .. ولكن شكله كان غريبا .

ــ شاى ..

ــ شكرا ..

ولم افهم هل أصنع له الشاى أم أن شكرا هذه تعنى الرفض وآثرت أن أعد الشاى ربما تشغلنى الحركة بعض الوقت وتساعدنى على التفكير السليم ، وشرب الشاى باستمتاع وأنا انظر اليه عله يتكلم . وبعد أن انتهى من كوبه قال فى صوت خفيض :

ــ أريد أن أنام ..

وحرت فيما أفعل ، لا أملك الا فراشا واحدا لا يكفى الا فردا واحدا .. ولاحظ هو حيرتى فقال :

ــ أن أمكن ..

واندفعت بسرعة واجبته :

ـ طبعا سندبر الأمر .

كنت أود أن أسأله عن اسمه وعن بلده وأسئلة أخرى كثيرة ولكن ما أن اشرت اليه أن ينام على الفراش حتى راح إفى نـــوم عميق بمجرد ملامسته للفراش ، وظللت أنا طوال الليل احاول معرفة ما يقوله إفلاسفة اليونان . وفى الصباح لم أجده ، كان إقد خرج وأنا أعد له طعام الفطور .

ماذا لو دق الباب الآن وطرقه طارق .. هل افتح ام اظــل مسترخيا فى دفء الفراش ؟ ربما إفتحت الباب ودخل رجل .. طويل ضخم الجثة فى يده سلاح حاد .

ـ من انت ؟

ـ لا يهمك أن تعرف .

ـ ولكن ماذا تريد .

وقيدنى الرجل فى مقعدى ، ثم سلبنى بعض ما أملك وتركنى مقيدا ، والقيد يحز إفى جسدى وفى نفسى .

لا ، ليست الأمور بمثل هذه البساطة ، أقـــاوم ، أصرخ ، أقذفه بالمقعد ، أتعارك معه أفعل ما يفعله الرجال فى مثل هــذه الحالة .

وأحيانا يختلف الأمر . ودقات رقيقة على الباب .. وبعـــد تردد أنظر من الطارق ؟ .

ـ أنا .. أرجوك إفتح الباب .

ـ من أنت ؟

ـ أنا أمسية الخير .

ـ وماذا تريدين ؟

ـ سوف تعلم لو إفتحت الباب .

ـ حسنا ، أدخلى اذا ..

يا للجمال !!

الروعة والحسن ، والقد المشوق ، والشعر الحرير والقوام البديع وصوت رقيق يقول :

ـ لقد ناديتنى منذ دقيقة فأتيت اليك ، واخترقت السحب وينابيع الأمطار وتخطيت مساقط الثلوج .. لألحق بك ..

ـ من أجلى أنا فعلت كل هذا .

ـ نعم ومن أجلك افعل أكثر من هذا ..

ـ سأعد لك شايا .

ـ لا . أرجوك .. لقد أحضرت لك شرابا صنعته لك بنفسى هو خلاصة كبد الحقيقة ومزيج شهد الأبدية .

ـ واذا شربته .. ماذا أصنع ؟

ـ سيجعلك قادرا على الطيران مثل عصافير الظهيرة ..

ـ اقتربى منى يا مليكة الحسن ، حتى ألمسك .

ـ لا تقترب فان جسدى من نار تحرق لامسها ، وتحوله الى قطعة من الحجر الأصم .

ـ لا عليك ، لمسة واحدة لا تضر كثيرا .

يا ربى لقد اصبحت حجرا أملس .. أين يداى ؟ أين عيناى ، اننى لا أرى . لقد أصبح كل شىء أسود قاتما .. لقد فقدت قدمى أيضا ، ها هو جسمى قد تحول الى صخرة مستديرة .. ما الذى

فى يدك هذه ؟ لا تدق أرجوك .. أننى لست حجراً من تلك الاحجار التى تصنع منها تماثيلك ، أنا حى مثلك سأتألم اذا أنت فلقتنى الى نفسين ، سأنزف دما .. أرجوك لا تفعل .

ـ لا تخش شيئا .. أنا مثال ماهر سأجعل منك تمثالا رائعا ويقول كل من يراه انه يشبهك تماما وأنت انسان .

ـ ولكنى انسان .

ـ انت تضحك بالطبع .

ـ أقسم لك .

ـ لا تقسم ، فقط انظر وانا أحطم منك جزءا ، ها هى قطعة منك ، ثم هذه ثانية هل تشعر بالألم .

ـ لا .. ولكن ..

ـ بعد ثلاثة آلاف دقة من الدقات على الحجر ستصبح تمثالا رائعا ..

ـ ولكنى .

ـ لا تخف .. هذه قطع لا فائدة منها ، ويجب أزالتها ، هنا نصنع لك عينين يكفى أن نشكل دائرتين ، ثم نصنع مكان الفم ، دائرة واحدة فى منتصفها خط .

هكذا تكتمل رأس التمثال .

ـ ولكن الأنف ..

ـ لا فائدة منها ليست ضرورية .

ـ استدارة الرأس مكان المخ .

ـ انت تتبع المدرسة القديمة التقليدية ، يجب أن يكون التمثال

له فلسفة خاصة تكفي ثلاث دوائر لتدل على الرأس ، ومكعب في الأسفل ليدل على الجسم لتصبح تمثالا رائعا .

ــ ولكن أين قدماى ويداى وجسدى . ؟

ــ لا تكن شكليا هكذا .

ــ شكليا .. اريد أن أكون شكليا اريد أن أكون مثل الناس ، انقذونى من هــذا المثال المخرف ، يا قوم ، يا ناس ، يا عالم .. لقدضاعت معالم انسانيتى . لقد حولونى الىمكعب وثلاث دوائر .

- ١٩ -

فى الصباح توجهت الى مكتبى وهناك بعد التحيات التقليدية ، استدعونى لحجرة المحقق الذى قابلنى ، بعد الابتسامات البليدة التى ليست لها صلة بالواقع سواء واقع شعورى الشخصى أو علاقات المودة بينى وبين هذا الرجل النحيف المصاب فيما يبدو ، بحساسية فى انفه ، جلست على مقعد مقابل لمكتبه ، وبدأ الرجل يكتب وبالقدر الذى يسخو به أنفه ، فيضطر دائما الى رفع منديله لتجفيفه ، بقدر ما بخل قلمه وظل جافا صامتا ، يجره بالقوة أحيانا وباللين أحيانا أخرى ولكن القلم يحفر الورق ويترك آثارا مؤلمة فى جسد الورقة ، وتمتد يد المحقق الأصلع الى درج مكتبه ويستعيذ بالله من القلم المعاند فى الصباح والذى يعطله ويعطلنى ايضا . وأفكر فى أن أمد اليه يد المعاونة ، وأعطيه قلمى ، ولكنى خشيت أن يعتبرها نوعا من الرشوة أو ما يشبه ذلك ، أو على الأقل رهبة منه وخوفا .

ودقائق تمر ، وأنا خائف ـ كأن الدنيا سوف تقع على رأسى ورأس أهلى ، ارتجف من الداخل رعبا وهلعا ، والمحقق يلعن الأقلام وأصحاب صناعة الاقلام . وحضر عامل البوفيه بالقهوة المعتادة سرعان ما ارتشفها بسرعة وهو ما يزال يعبث فى القلم عله يكتب . ثم تذكرنى فجأة فقال :

ـ تشرب قهوة .

ـ شكرا ..

وبعدها رق القلم وبدأ يكتب ، ولكن ما أن خط على الورق ثلاث كلمات حتى بثق نقطة كبيرة من الحبر ، نظر اليها المحقق وكأنها كارثة قد وقعت ونقطة الحبر تزداد اتســـاعا على سطح الورقة ، ويداه مشلولتان لايستطيع أن يمدها لكي يمسح النقطة ولا أن يرفع الورقة.

وأخيرا أخرج من درج مكتبه قطعة قماش ملوثة بالحبر ومسح بها نقطة الحبر ، ثم ادرك ان أنفه تتساقط منه النفط فرفع يده الى انفه ومسحه بنفس قطعة القماش الملوثة بالحبر ، ولكنه ادرك انني انظر اليه ، فتلعثم ونطق بكلام غير واضح ، ونظر الى الورقة قليلا ثم مزقها واتى بورقة أخرى وبدأ يكتب .

سألني عن اسمي وعنواني وصناعتي وأسئلة اخرى .. ثم وضع القلم جانبا واخرج سيجارة من درج مكتبه وأشعلها وراح يجذب نفسا بتلذذ وهو يغمض احدى عينيه ويفتح الأخرى ، ناظرا الى ما كتبه باعجاب ، وانا جالس وأعصابي مشدودة متوترة أكاد أفر من امام هــذا الرجل الأصلع ، وشـــاربه المربع والصفرة التى تعلو وجنتيه ورعشة في يده اليسرى ـ كل هذا يبدو منفرا بغيضا الى نفسي .

حاولت أن أتذكر شيئا أو أفكر فى أمر من الأمور يبعدني عن هذا التوتر ، ولكن يبدو أن هــذا التباطؤ من جانبه نوع من الارهاب النفسي حتى يجبرني على الاعتراف ولكن بماذا أعترف ؟ انني حتى الآن لا أعرف ما أنا متهم به ؟

ودق جرس التليفون ، فتريث قليلا قبل أن يمد يده ويرفع السماعة ، وبعد ذلك بسيل من كلمات العتاب . يقاطع من يحدثه ويتكلم ، ترك القلم والســـيجارة واعتدل فى جلسته .. ثم راح

يتكلم الامانة .. الواجب .. سيرة الناس .. أحاديث الناس .. وما كان وما لم يكن .. والزواج ليس العوبة فى أيدى شباب اليوم، الزواج عقد ارتباط ، والمحقق يقص حكاية زواجه .. ثلاثين عاما من الحياة الزوجية دون طلاق أو حتى دون خصام ، لأنه يمارس حقه كرجل .. وهى تمارس وظيفتها كزوجة ، وتبدو قطرات عرق على جبينه فيذيلها بسرعة بيده ، ثم يتذكر السيجارة ولكن للأسف لقد انتهت والحديث لا يزال فى فمه ، على السيدات باقى الأعمال، الرجل يأتى بالمال ، هذه أمور نسائية بحتة ، نقط أخرى من العرق، أليست لهذه المكالمة التلفيونية من نهاية ؟ ، وأسعار الأرز والسمن واللحوم والأسماك .. أين هى من أسعار زمان .. أيام كان السمن بدون ثمن ثم ان الجلوس على المقاهى نوع من مضيعة المال والوقت، وغير من وضع السماعة وهو يروى حادثة وقعت لأحد الخلفاء الصالحين .. الرحمة ياسيدى .. اننى هنا أجلس أمامك منذ الصباح ارجوك دعنى أوقع ثم أكتب ما تشاء ، اصدر حكمك على ودعنى انصرف ، والتليفون يتألم والرجل لايزال يتشبث بالحديث بل ان صوته قد أصبح عاليا .

الرحمة ياقوم .. مجرد الرحمة .. ، ودخلت مجموعة من الزوار انهت المكالمة ، ووقف المحقق يرحب ويسلم ، وانتهزت الفرصة وقلت :

ــ غدا انشاء الله ..

ــ ان شاء الله .. مع السلامة .

وانصرفت بسرعة ، انطلقت من حجرته ، وجريت حتى الشارع. وكأننى سجين أفرج عنه ، ولم أجد فى نفسى رغبة فى الذهاب الى المنزل ، فضلت السير فى الشارع ، ربما أهتدى الى نفسى فى

خلال سيري بين الناس ، ربما استطيع أن اجيب على السؤال المحير: من انا .. ؟ ما هو دوري وما علاقتي بهؤلاء القوم ، العالم كله ينطلق ، يتقدم ، ينفعل بما يصنعه ، يحارب نفسه ، يهدم نفسه .. يخترع الميكروبات وعقاقير لمقاومة الجراثيم ... وتنطلق الصواريخ تعبر الفضاء الواسع لتصل الى القمر ، وتدور حوله وتهبط عليه .. أما أنا.. آكل حتى تمتلىء معدتي بالطعام وأنام حتى تتصدع رأسي، واحلم ولا شيء بعد ذلك ، ولكن هل هناك آخرون مثلي واين ؟ أين الأيدي الناعمة التي لا تجيد الا الامساك بالقلم ؟ لابد انهم جميعا يشعرون بما أشعر ويعملون مثل ما أعمل .. يرقمون الأوراق أو يرتبون الأوراق أو يكتبون الأوراق .

ولكن من يصنع الأوراق ؟ من يروى الشجر ؟ ومن يرعاه حتى يكبر ، ومن يقطع الاشجار بعد أن تكبر ، ومن ينشر منها اخشابا ، ومن يصنع الأقلام والأوراق والمكاتب ؟

أنني أخطأت الطريق . أخذت طريقا ضيقا خانقا ، كلما سرت فيه ضاقت جوانبه ، بدلا من الأحلام وانتظار الجنيات يجب ان أفكر في شيء . ما الذى يحدث لو تركت هذا الطريق وأخذت طريقا آخر ؟ ولكن بعد كل هذا السهر والاستذكار وبعد كل تلك الآمال التي غرستها في قلب امي واهل بلدى ؟ ..

وشعرت بهواء ساخن، ومملوء بالأصوات، وله رائحة ، وخرجت من بين احجار الطريق ، اربع جنيات جميلات يحملن في ايديهن سلالا مملوءة بعناقيد العنب ، وأشارت الى واحدة منهن فاقتربت منها ولكنها ابتعدت قليلا فاقتربت اكثر ، ومدت يدها بعنقود من العنب له بريق ، واشتاقت نفسي اليه ، ومددت يدي لأتناوله منها ، ولكنها ضحكت واسرعت نحو الأخريات ، فأسرعت نحوهن ، حاولت

أن أدس يدى في السلال ، ولكنهن أبتعدن ضاحكات وصاحت احداهن :

ــ هل تحب عناقيد العنب ؟ .

وأردت أن أجيبها ، ولكن صوتى امتنع عن الخروج ، فأشرت اليها بيدى ، فقالت الأخرى : .

ــ ها هو العنب ، معنا الكثير ولكن يجب أن تمسك بنا حتى يمكنك أخذه .

فحاولت أن أقترب ، ولكن مهما اقتربت فان المسافة مازالت بعيدة بينى وبينهن وضحكن منى وقالت الصغرى : .

ــ نحن لا نعطى ، يجب أن تصعد الينا حتى تأخذ .

ــ تأخذ حقك وتبقى لنا حقنا ..

وأسرعت خلفهن حتى ألحق بهن وقد اشتاقت نفسى لعناقيد العنب ، وهزتنى تلك السخريه منهن ، ولكنى اصطدمت بشىء . وشعرت بالألم فى رأسى ، وسمعت ضحكا عاليا ، وصوت دسوقى وهو يقول : .

ــ أنت نائم ؟ !

وابتسمت فى خجل ومشيت معه ، أخبرنى انه ذاهب الى شركة الآلات الزراعية ، فأبديت له موافقتى على مرافقته .

وهناك فى معرض الشركة المطل على الميدان ، كانت تقبع ثلاثة جرارات زراعية حديثة وكل منها له شكل ولون خاص ، ويقف بطريقة مختلفة عن الآخرين ، أصغرهم له لون أحمر صارخ ، وكل آلاته مغطاه برداء لامع ، والثانى ضخم الحجم فى استطالة .غطاؤه غير كامل تبدو من اسفله آلاته الدقيقة ، لونه اخضر ، اما الثالث فهو بين حجم الاول والثانى ، ربعة القوام اصفر اللون ، وفى ود اخذ

دســوقى يلف حول الجرارات الثــلاثة ويربت على ظهرها بيــده ويتلمسها ، ويتحدث اليها وكأنها تسمع له وتفهم ما يقوله ، ووقف بجوازه أحد موظفى الشركة ، يبدو أنه يعرف دســـوقى جيــدا فتركه يتصرف بحريته ..

ولم اتحرك من مكانى ، وقفت أنظر الى ما يفعله دسوقى ، واستمع الى ما يقوله موظف الشركة ، وانتظر حتى ينتهى كل هذا وأعود الى المنزل ، ولكن دسوقى طالت وقفته ، وطال حديثه مع الموظف ، وأتى آخرون وتحدثوا مع دســوقى ثم أتوا اليه ببعض الأوراق ، وسرعان ما دخل دسوقى فى جدال معهم ، هم يحاولون اقناع دسوقى بشىء ما ، بينما هو متشبث برأيه مصر عليه وتقدمت من دسوقى فى محاولة لفهم الموقف أو الاستئذان للانصراف ، ولاحظت انه يريد نوعا من الجرارات وهم يريدون له نوعا آخر ، ولم أستطع الحديث فى هذا الموضوع لأننى لا أفهم فيه ، وأخيرا وافقوا على طلبه وأسرع بتوقيع الأوراق ودفع لهم مبلغا كبيرا ، ولم أكن أتصــور أبدا أن دســوقى يملك مثل هــذا المبلغ او حتى نصفه ، ودهشت كثيرا ، وكأنه لاحظ ذلك فقال ضاحكا :

ـ تحويشة العمر ..

وضحكت انا أيضا وقلت بعض الكلمات المناسبة ثم انصرفنا . وفى الطريق أخذ دسوقى يتحدث بحماس وأوضح لى أهمية الجرارات الثلاثة الجديدة وكيف سمع بوصولها ، ودفع بالفعل مقدم ثمن الجرار الصغير الأحمر الذى سماه (نمرا) لانه صغير وسريع وقوى ، بالاضافة الى قلة استهلاكه وسهولة صيانته ، فقاطعته قائلا :

ـ ولكن كيف تدفع ثمنه يادسوقى ؟

ـ على أقساط سنوية ولمدة خمس سنوات .

ـ ولكنه غالى الثمن ، هل يدر دخلا معقولا اذا ؟

فضحك دسوقى وهو يقول :

ـ سر المهنة يا أستاذ ، ولكنك صديقى منذ مدة فكيف لم يمكنك معرفة ذلك ؟

وابتسمت معتذرا عن قلة ادراكى واعدا اياه أن أكون أكثر حرصا على معرفة هذا الأمر فى المستقبل .

ولم أحاول أن أسأل ثانية فى هذا الموضوع خشية احراجه ، فالأرزاق نوع من الأسرار بالنسبة لهـذا الرجل الذى لا يملك الا عمله ، وآثرت أن أسكت وأترك له حرية أن يتكلم أو يصمت هو الآخر . ولكنه انطلق فى الحديث حول الأدوات الزراعية الحديثة ، ومدى ما تحققه من ربح وفائدة سـواء لصـاحب هـذه الأدوات أو للزراع الذين يسـتأجرونها ، فالحقـل الذى تبلغ مسـاحته عشرة أفدنة كان يسـتغرق خمسـة أيام كاملة تدور فيهـا الماشية ليـلا ونهـارا فى سـاقية عجوز تظل تنـوح وتبـكى طوال هـذه المدة ، بينما اليوم وبواسـطة آلة رى صـغيرة تلحق بالجرار يمكن رى هذا الحقل فى نصف يوم فقط ولن يتكلف هذا سـوى جنيهين تقريبا ثمن الوقود ، بينما يتقاضى صاحب الجرار أكثر من خمسة جنيهات .

وضحك دسوقى حينما نطق بالجملة الأخيرة وكأنه فطن الى أنه أذاع سر المهنة وأنهى حديثه بسرعة .

ودعوت دسـوقى الى تناول الغداء فى منزلى اكراما للجرار الجديد ، وفى نفس الوقت هربا من أسئلة زوجتى أو أمها .

وفى أثناء الطعام أخبرنى دسوقى بأنه سيرسل الجرار القديم الى ورشة بالقاهرة لأنه يحتاج الى بعض الاصلاحات غير المتوافرة فى أسيوط . وأعرب عن أسفه لأنه لن يتمكن من الذهاب مع الجرار

حتى يشرف بنفسه على الاصلاحات التى تتم بالصورة التى يريدها .. ثم سألنى :

ــ ايمكن أن تسافر الى القاهرة ؟

ــ ربما ..

ــ لو سافرت لأمكن توصية عمال الورشة على الجرار وملاحظة عملهم .

ــ افكر يا دسوقى .

وكان السؤال مفاجأة لى ، فلم يكن فى نيتى السفر الى القاهرة ، ولم تكن بى رغبة للحصول على أجازة ، ولكن سؤاله .. كان اشارة البدء فى التفكير بضرورة الأجازة والسفر الى القاهرة والابتعاد عن مكان العمل فترة أستعيد فيها نفسى ، وارتب الأمور فى عقلى . ثم أن القــاهرة مدينـــة النور ، سأجد فيها مرتعا خصبا للترويح والتغيير ، سأزور فيهــا أصــدقاء غابوا عنى طويلا واشتقت الى رؤيتهم ، أتسكع فى شوارعها وحواريها .. أرى أهل القاهرة وهم يعيشون . ارى أياما كنت أعيشها أدور حول الجامعة ، أستنشق عبير رائحة الماضى وذكرياته ، اقابل المسئولين هناك علهم ينقلوننى الى القاهرة أو بلدا آخر قريبا .

فوق النهر ، أسفل الكوبرى ، فى دوامة الماء ، أجد عروسا تسبح وترتدى ملابس العرس وفى مركب فرعونى له شراع ابيض أجلس بجوار العروس ، واسمع أنشودة الليل ، وضوء مصباح فى أعلى الكوبرى يلقى شعاعه في الماء وينام على سطحه ، مثل سمكة طويلة ، وعروستى تبتسم تمد يدها وتضحك وتلمس الماء ، واصبعها تتساقط منه قطرات من الدم ، مثل زيت أحمر يضعونه فى خزان الجرار فيدور ويسير علي السمكة التي تصرخ من الألم . عروستى

حزينة لأن السمكة ماتت ، وانطفأ المصباح ونظر الشرطى المكلف بحراسة الكوبرى ليرى ما حدث فأشرت اليه بالصمت فارتعد ثم نظر ثانية وأنا أخنق العروسة وصاح :

ــ ابتعد يامجنون .

وضحك دسوقى وقال :

ــ اتفقنا ، تسافر فورا ..

فأجبته وأنا أخنق عروستى :

ــ ان شاء الله .

- ٢٠ -

سافرت الى القاهرة ، بعد أسبوع من حديثى مع دســـوقى ، قضيته فى الذهاب كل يوم الى مكتب المحقق ، تحملته وأنا أمنى النفس برحلة جميلة الى العاصمة ، صبرت مثل أيوب ، تكلمت مثل أرسطو .. كنت أردد فى خلال جلســــاتى الطويلة أمام المحقق كلمات عن العدالة والظلم والصبر والايمان ، حتى انتهى المحقق وأكد على أنه لا داعى لحضورى بعد ذلك ، صرخت من الفـــرحة وخرجت عدوا حتى لا يرجع فى كلمته .

وفى القطار وأنا مسافر جلست بين ضجيج الدرجة الثالثـــة أرتب فى عقلى ألف ميعاد وزيارة ورحلة قصيرة ، أقرر أن أسافر الى بلدتى خلال الأجازة ثم أعدل عن هذه الزيارة لمـــا تسببه لى من ألم نفسى .. وأقرر أن أزور الجامعة وأدوس خلال دروبها ومدرجاتها أتطلع الى وجوه زملاء المستقبل .. ثم أرجع عن هذا القرار ، فالزمن قد تغير ولن أجد من يعرفنى ولا من أعرفه بين الأساتذة والسعاة فلم يكن بينى وبينهم تعارف ، بل اننى لا أذكر اننى تحادثت مع أستاذ منهم فى أمر من الأمور الدراســـية أو غيرها . ولكن الذى يستحق الزيارة فعلا . الحى الذى كنت أسكن به وأنا طالب .

وصلت الى المحطة ، كنا فى بداية الربيع ، أناس كثيرون ، صفير قطارات راحلة أو قادمة ، باعة الصحف ينادون على شىء هام ، حركة سريعة غير عادية ، أعلام كثيرة ملونة ، القادمون فقط من

البلاد الريفية يشعرون بضجة المدينة ، شعرت بالارتباك ، رغم ان هذه ليست أول مرة أنزل الى محطة مصر ، فقد قضيت أربعة أعوام أتعلم فى جامعتها . الناس تدفعنى الى الأمام والخلف وانا أتطوح أنظر الى علامات الأرصفة .. حمال عجوز يشد منى الحقيبة ويصرخ، وعيناى تبحثان عن طريق الخروج لا أريد السؤال ، الحمال تعب من الشد والصراخ . تركنى حانقا . جرفنى تيار المرور ، وسرت بين مجموعة ، ولكنهم كانوا ينتظرون قطار بور سعيد .. القطار تأخر صراخ الأطفال يعلو ، الأمهات غاضبات قلقات ، الرجال تبدو عليهم العصبية والارتباك ، الحقائب كثيرة والأجولة والسلال والملابس جديدة ثقيلة لامعة ، بائعو (السميط) والفازوزة يحومون حول الأطفال .. مكبر الصوت يثير عاصفة من الضجة لا يمكن فهم كلمة مما يقوله يتردد مرة أخرى بلغة أجنبية ، صراخ مجموعة من الطلبة فى رحلة ، يا للأسف سقطت الجرة وتحطمت على رصيف المحطة ، ارتفع عويل المرأة ، تقدم منها شرطى وراح يسبها ، حام حولها بعض الحمالين ، والجبن قد اختلط ببقايا الجرار المحطم ، سال اللبن فى المجارى الدقيقة لبلاط الرصيف ارتفع صوت خشن من مكبر الصوت ، تحركت بسرعة مجموعات هائلة نحو صوت صفير قطار قادم ، وخرجت الى الميدان .

الميدان واسع كأنه نصف مدينة أسيوط ، سيارات بكل الألوان والأحجام ، ترام ، اشارات مرور ، وضعت الحقيبة ووقفت أبتلع ما حولى وأهضمه ، فى القرى يقولون ان أهل القاهرة تحميهم بركات أولياء الله الصالحين . حقا . كيف يقود المرء سيارة وسط هذا الزحام والصراخ . ورمسيس يتطلع الى السماء فيشعر بلهيب الشمس . وينظر الى ماء البحيرة ويقفز الى الماء ويستحم ويلعب برذاذ الماء ، ومن حوله مجموعة الصبية يتلقفون الرذاذ فى متعه ، ويقبضون عليه بأيديهم ولكن الماء يفر ويذهب الى أقدام رمسيس

ونساء وفتيات ، فى ملابس جميلة ملونة ضيقة ٠٠ أنا أحب الملابس الضيقة على أجساد النساء ، رمسيس يرتدى سروالا قصيرا ضيقا وصدره عارى . مثل أحدث موديلات الملابس .

صرخ رجل عجوز فى فرحة :

ـ القاهرة أم الدنيا .

سمع صراخ العجوز مجموعة من الناس تجمهروا حوله ، تقدم منه شاب وقدم له مجموعة من الصور ، دقت الطبول ورقص العجوز وهو يعرض لنا الصور ، اهتزت صورة الأهرام ثم سقطت بجوار البرج الذى ضحك ، وتقدم الشاب وساعد الأهرام على الوقوف فصفق الحاضرون .

وركبت السيارة ٠ متجها الى منزل أحد أقربائى ٠ الذى استقبلنى ببشاشته المعهودة ، وصوته الجهورى الريفى ، وبطعامه الدسم وبحديثه الشيق ، شعرت بالراحة وأحسست بالأمان وجلست أتحدث اليه عن نفسى ومخاوفى ، وشكوت له سوء حظى من الزواج والعمل ، وفقر النفس ، وضعف الارادة ، ودار الحديث حول (دسوقى) الذى شجعنى على الحضور الى القاهرة ٠ وجاء الليــل ولم ننم ٠ كان الحديث يجر ساعات الليل ٠ هو يتحدث عن زوجته وما حدث له ، وأنا أقص عليه ما حدث لى وعن سالمة وزوجتى وأحلامى ٠

وفى خلال حديثى معه ٠٠ أحسست أنه يعانى من نفس ما أعانيه، وانه يعيش أيامه مثلى ، يحاول التخلص من مشاكل علقت به وأن يجد نفســه ، ربما يوجع ذلك الى تقارب البيئة التى ولدنا فيها ونشأنا بها وتعلمنا خطواتنا الأولى على أرضها ، وكانت لهذه البيئة المشتركة نفس التأثير فى أحلامنا ، تقيدنا خطوط وهمية من الآمال ، وتمنعنا من الانطلاق أسلاك شائكة حاول الأهل أن يحيطونا بها ، فقيدتنا الآمال وسجنتنا الأسلاك ، وظللنا ندور فى خلالها ، نذهب الى المدرسة لنتعلم كيف ننجح فى الامتحان ، ويأتى العام الجديد وليس

في عقولنامن دروس العام الماضي قليل أو كثـــير ، كنا نذهب الى المدرسة لكي نحصل على شهادة لندخل الجامعة ونذهب الى الجامعة لنحصل على شهادة تعطينا الحق في المكتب والكرسي والوظيفة والتليفون يدق والأوراق يأتي بها ساع عجوز ، وطوابير الناس يقفون أمام الباب في انتظار لقاء قصير مع سيادة الموظف ، والأهل يتحدثون عن سلطته ونفوذه في الجهاز الحكومي ، ويأتي الى الأهل أناس آخرون يطلبون التوصية حتى يمكن نقل قريب لهم من مكان الى آخر أو اعفاء أبناء لهم من الخدمة العسكرية أو الحاق أحدهم في كلية الشرطة ، وما الى ذلك من واجبات تفرضها الوظيفة الكبيرة التي حصل عليها (الأفندي) بعد الجامعة · ولكن للأسف لم يتحقق كل هذا ، فلا توجد وظيفة كبيرة ولا مكتب ولا حتى تليفون ، والساعي شاب صغير منتسب لاحدى الجامعات ، ويدرس بالليل ، ويتحدث بقليل من الكبرياء فلن يبقى عليه أكثر من عام ويجلس بجواري .

في الصباح ·· اصطحبت صديقي وذهبنا الى الورشة لنرى ما تم عمله في جرار دسوقي ، وكانت الورشة في احدى الحواري المليئة بالأطفـال والدجاج والأوز ونســـوة كثيرات يجلسن في صمت ، وأمام كل واحـدة منهن أكوام من الأطعمة ، والحـــارة مملوءة بقطع الســـيارات المفـكوكة ، وبأدوات الخراطة والحدادة والزيت والشحم والمـاء القذر ، وهدير الآلات وصــوت المدقات والمطارق ، وغناء وموسيقى في جهاز الراديو وعمال يجلســـون بجوار الاتهم يحتســـون الشـــاي ، وآخرون يطرقون على قطع من المعدن وشرارات نار تتطاير من أجهزة اللحام .

واخترقنا كل هذا حتى نصل الى ورشة المعلم جابر الذي يتولى اصلاح الجرار ، وهناك وجدنا (فهدا) مجرد هيكل حديدي قابع بجوار الورشة التي لا تزيد عن حجرة صغيرة · وفي الداخل صبي في حوالي العاشرة ويقف بجوار مائدة عليهـا بعض الأدوات وهو

مشغول بتطع قضيب من الحديد ويتغنى باحدى أغانى الحب، ولمبة كهربائية مضاءة ، رغم انتشار ضوء النهار وحائط الورشة ملىء بالكلمات (صلى على النبى) ، (الدفع مقدما) ، (الأسطى جابر وولده) ثم بعض الكلمات الأخرى كتبت بالزيت الأسود ، وبعد ذلك الحائط ملطخ ومتسخ ، ثم أجهزة جرارات مختلفة ملقاة باهمال ، برميل به ماء . بعض المقاعد الحديدية السوداء ، تقدمت من الصبى وسألته عن المعلم جابر ولكن الصبى لم يرد ، فاضطررت الى الاقتراب أكثر ووضعت يدى عليه وسألته مرة أخرى :

ـ المعلم جابر يا أسطى ؟ .

واعتدل الصبى فى وقفته ، ومد قامته بأقصى ما استطاع بعد أن ترك ما بيده ، وأخذ يرحب بنا ويقول :

ـ أهلا ، أهلا ، اتفضلوا ..

ونظرت الى حيث أشار بيده فوجدت الكراسى الحديدية السوداء ثم انطلق الى خارج الورشة ، ونادى بأعلى صوته طالبا الشاى بسرعة ، وعاد مرة أخرى ، وأصر على أن نجلس ، ولكنه وجد أننا ننظر الى الكراسى بشىء من الامتعاض ، كف عن الالحاح بالجلوس ، وعاد الى مائدته وهو يقول :

ـ أهلا وسهلا .. أى خدمات ؟ .

وأعجبنى منه ثقته بنفسه وترحابه الكريم وبشاشته فسألته :

ـ انت ابنه ؟ .

فابتسم الصبى وأشار الى نفسه وهو يخبط على صدره :

ـ رشاد أبو الدهب ، صبى المعلم جابر .

وأخذت ، كما هى العادة فى مثل هذه الحالات ، أتحدث الى رشاد ، وأنا أبتسم فى رقة وتواضع ، وسألته عن تعليمه ولماذا لم يتفرغ للدراسة . كم عدد اخوته وكم يتقاضى من الأجر ولكن اجابته تركت فى نفسى ألما عميقا واحساسا بالخجل من تظاهرى

بالرقة والتواضع • فهو يعول أسرة مكونة من أمه وخمسة من الأخوة كلهم فى المدارس ، وهو أيضا يذهب الى المدرسة ويصل أجره فى اليوم الى سبعين قرشا وأحيانا يصل الى جنيه كامل ، ثم تحدث عن فريق الكرة الذى كونه من صبية الورش فى الحى ، وانطلق الغلام يتحدث فى ثقة عن اخوته وعن فريق الكرة وعن ذهابهم الى السينما والمسرح ثم اختتم حديثه باخبارى أنه سوف يفتتح ورشة خاصة فى المستقبل مثل المعلم جابر الذى كان صبيا مثله من قبل ، وبين كل جملة يرحب بنا ويسألنا عن الصحة ويعتذر عن تأخر الشاى حتى وصل المعلم جابر ، وهو رجل قصير نحيف يبدو أنه لم يفق تماما من النوم • ولما عرف أننا من قبل دسوقى رحب بنا وأرسل (رشاد) ليحضر الشاى بنفسه وكراسى من المقهى المقابل •

انتهت زيارتنا لورشة المعلم جابر • بعد أن علمنا أن الجرار سيفرغ من اصلاحه بعد أسبوع وأنه حريص على ارضاء الأسطى دسوقى ، ولا يهمه المال بقدر ما يهمه اتقان صناعته من أجل صديقه دسوقى •

وعبرنا الطريق الملىء بالضوضاء والغلمان والنساء الجالسات على الأرصفة ، الى الشارع الواسع ولكنى أحسست أننى تركت جزءا من نفسى مع الأسطى الصغير رشاد • ولم تذهب صورته وهو يحدثنى رغم أحاديث صديقى مصطفى ، والاعلانات الملونة المليئة بالنساء والبنادق والأسماك ونداء بائعى الفول والليمون والجرائد وصوت عجلات المترو ، بل ظلت صورته عائمة فى ذاكرتى تعبر معى الشارع وتخطو على الأرصفة وتشاهد معى فترينات المحلات المليئة بالصنائع •

وطاف بى مصطفى فى القاهرة كأننى زائر غريب لم يرها من قبل ، وضاع اليوم فى هذه الجولة أما فى اليوم التالى فقد آثرت أن أقوم بجولة أزور فيها بعض الأصدقاء ، ولكنى لم أستطع

تحقيق هذه اللقاءات بالصورة التى أريدها ، فأحدهم بحثوا عنه فى كل أنحاء مبنى الوزارة ولم يجدوه وآخر قالوا لى أنه فى السينما كالمعتاد ، وثالث فى أجازة مرضية ، والأخير وجدته قد شاخ وجلس على مكتبه يتثائب فى خمول وليس لديه الا :

ـ زمن ! أيام زمان ٠٠ فاكر ؟ ٠

وكأنه قد مضى على أيامنا عهدا طويلا وأصبحنا مجرد ذكريات٠ فتركته قبل أن تأتى القهوة التى دعانى الى تناولها معه ٠ وتذكرت صديق الدراسة (محمود) فقمت بزيارته فى المدرسة التى يعمل بها ووجدته يجلس فى فناء المدرسة يتصفح جريدته بهدوء ، ولما سألته عن أحواله قال :

ـ الأمور على ما يرام ٠٠ حمدا لله ٠

تركته هو الآخر يقرأ أخبار الدنيا وانصرفت ، وعدلت عن فكرة زيارة بقية الزملاء فلن يكونوا خيرا من هؤلاء ٠

وجذبتنى صورة رشاد صبى المعلم جابر ، وشدنى حماسه وصبره وجديته ، فذهبت اليه أشرب الشاى واستمع اليه وهو يشرح لى تركيب احدى الآلات أو وهو يقوم بتجميع أحد المحركات وقضيت بقية أجازتى فى القاهرة بين زيارتى لورشة المعلم جابر والحديث مع رشاد وصحبه صديقى مصطفى فى المساء لقضاء أمسية فى مكان ما ..

ومن خلال زياراتى اليومية وحديثى مع الأسطى جابر أو رشاد انبثقت فى عقلى فكرة ٠٠ لا أعرف كيف أصرفها أو أنفذها أو أبدأ بها حاولت التحدث مع مصطفى ومناقشته فيها ولكنى لم أستطع ، وكلما ذهبت الى الورشة ازدادت الفكرة الحاحا الى عقلى ولكن كيف أرتبها وأنظمها ؟ لا أدرى ٠

أقفال من حديد تمنعنى ، أحمال على ظهرى ، أفكار خبيثة تحط من عزيمتى ، رغم أن الفكرة بسيطة وتحتاج الى بعض التدبر وشيء من العزيمة وقليل من الشجاعة .

أين الجنيات لم لا يظهرون ؟ أين حاملات الأحلام ؟ الطعام فقد رائحته .. الشراب ذهبت الحاجة اليه .. النوم استحال .. التفكير غير مرتب ، أين أنت يا جنية منتصف الليل ؟ أين خاتم السعد .. من ؟ .

ـ أنا عبدك .

ـ عبدى ..

ـ الأمر لك وعلى الطاعة .

ـ ومن أين أتيت والى أين وماذا تريد ؟

ـ أنا من داخل تجويف عقلك جئت لأنفذ لك رغباتك .

ـ اذا أدخل الكهف وأحضر لى جرارا مليئة بالذهب .

ـ أدخل أنت أولا ..

ـ ولكنك تقول أن عليك طاعتى .

ـ نعم .. أدخل الى الكهف وسأتبعك لأنك سيدى .

ـ ولكنى خائف .

ـ وأنا أكثر منك خوفا .

وصرخت امرأة عجوز وقذفته بحجر فجرى العملاق وهو يعوى من الألم .

- ٢١ -

حينما كنت أذهب أنا وصديقى كمال الى دار الشيخ كنت صغيرا ومحدث حب ، أسعى جاهدا الى نيل حب فتاة صغيرة ، واستعنت بالشيخ وبجن الشيخ كى أحصل على قلب الفتاة ولكن لم ينجح الشيخ ، ولم تستطع جنياته ابلاغ رسالة الحب الذى ظل دفينا فى صدرى ، وظلت كلمات الغرام مشنوقة فى طرف لسانى ، وسرت وراء سراب خادع سنوات ما كان أجملها لو اتخذت مذهبا آخر ، وقلت الحب لمن أحب دون وسيط .. ولو كان عم مغاورى حيا لحدثنا عن نفسه وعن قصته ولكنه ذهب وأخذ السر معه ولم يبق الا خيالات الحقيقة المشوشة التى نسجت قصة الجنية . وأصبحت القصة مثل طوق النجاة يتعلق بها أناس من أمثالى غارقون فى الوهم ويعشقون الأمل ويسألون الأحلام أن تأتيهم بالنجاح حتى الباب دون جهد أو عرق . وكما عشقت سراب الحب ولم أذقه ، عشقت سراب النجاح ولم أحققه ، مشيت فى درب مظلم يؤدى الى دار رجل ذكى استغل ضعف البشر ـ وراح يدور حول بخور الوهم متمتما ببعض الكلمات سائلا الجن الحب للشاب ، والولد للعاقر ، والزوج للعانس . والمال للفقير . وقتل الماشية للظالم ويأخذ فى مقابل سؤاله بعض النقود وحفنة من عرق الأجير ، ولمسة من شرف امرأة ، وان استجاب القدر للسؤال كان خيرا وبركة ، وان جاء العكس فالجن فى حاجة الى المزيد والصبر مفتاح الفرج .

وبهذه العقلية عشت حياتى حتى الآن · سألت الشيخ فسألنى النقود ، سألت الأحلام والوهم فأعطانى قبض الريح ، واذا ما فتحت عينى ورأيت يدى خاوية لعنت الحظ والزمن والأيام ·

لا ، لن أندفع أكثر من هذا فى طريق أعرف أنه مقفل مظلم ملىء بالأشباح ، يجب أن أصنع طريقا جديدا الى النور ·

والقطار العائد الى أسيوط ملىء بالحركة ، وحولى بعض الطلبة الذاهبين الى الجامعة ··· يتحدثون ويضحكون · حاولت أن أندمج فى الاستماع اليهم ولكنه كان حديثا ضـــــحلا فآثرت العودة الى أفكارى ·

اشترى الجرار من دسوقى !! ·

أنا لا أملك ثمنه ولا حتى جزءا من ثمنه ولكنى سوف أدفعه على أقساط مثل ما فعل هو حينما اشترى الجرار الجديد ، هذه هى الخطوة الأولى وبعدها الاستقالة ، نعم أترك العمل الذى لا أحبه دون أسف أو تردد وأعود الى قريتى راكبا جرارا أحرث الأرض التى ولدت فيها وعشت عليها وتركت أمى تجوس فى وحلها وجلست أنا على مكتب خشبى أرقم الأوراق ·

ثم تندفع الأمور من تلقــاء نفســها ويأتى دورى فى الحيــاة الحقيقيـــة طالمـــا أنا أمســـكت بالخيط الحقيقى من بدايتــه ومجــرد وجــودى فى القــرية هــو بداية الطــريق .. عمــل أتكسب منـــه ، أحرث الأرض وأســـوق الجرار ، وليـــكن الأجر معقــولا .. أننى أتقاضى حاليا حوالى الثلاثين جنيها فى الشـــهر فاذا اســتطعت أن اتكسب جنيها فى اليوم لا استطعت أن أحقق ربحا بالتأكيد هذا بخلاف المسكن المجانى والنفقات المخفضة، هذا من الناحية المادية أما من النواحى الأخرى ، فسوف أشرف على نادى القرية وأستغل معلوماتى التى درستها فى الجامعة فى خدمة أهل القرية · وعلى هذا أكون قد استطعت الاستفادة من مدة وجودى بالجامعة ·

نعم هذا دورى بالتأكيد ، ايجابية العمل وجديته وفوائده هى الأساس الحقيقى لقياسه وتقييمه ، ولكن هل هذا حقيقى أم مجرد تخيلات ؟ هل حقا أستطيع الاستقالة ؟ ماذا تقول زوجتى وأمها ؟ هل يوافقان ؟ وهل يوافقان على ذهاب زوجتى معى الى القرية ؟ وان لم يوافقا فهل أرغمها على الذهاب معى ؟ ولكنى لا أحب الحياة مع زوجة كارهة المعيشة معى أطلقها ؟ ولكن الطلاق صعب مهما كانت الأمور ، بل هو سلبية لا أحب أن أبدأ به أول الطريق الجديد، حقا لقد بدأت المشاكل ..

وأمى ، هل توافق أن ترى ابنها أسطى يرتدى «عفريته» ملوثة بالشحم والزيت وحتى لو كانت بدلة جديدة دون شحم أو زيت .. هل ترضى بأن يكون وحيدها بعد كل هذه السنوات من الدراسة وبعد كل هذه المصروفات .. وبعد كل هذه (الأفندية) يعود الى القرية يركب جرارا ويحرث الأرض بأجر « لا .. لن ترضى وسوف تلطم الخدود وتبكى وتولول على ابنها والكارثة التى حلت بعقله ، وبخيبة الأمل التى اختارتها دون خلق الله لتقع على رأسها .

ــ بعد كل هذا يأتى ويعمل أجيرا ، ترملت من أجله ، تحملت كلام الناس ، جعت وحرمت نفسى من زاد الدينا من أجل تعليمه . ثم يأتى هذا الولد الخائب ويترك وظيفته المحترمة فى الحكومة ..

والله لابد أنه (عمل) عين حسود وأصابتنا ، صرفت عليه ثمن عشرة قراريط وجاموسة ليتعلم وينفع نفسه .

ــ لا أحد يجد مثل وظيفته أبدا ، بل لا يستطيع أحد أن يحصل على ربع مركزه فى الحكومة .

ــ يجب أن نذهب الى السيد البدوى ...

ــ والى السيدة أم هاشم و ...

ــ وكل أولياء الله الصالحين .

ـ وندعو الله .

ـ أن يشفى عقله .

ـ ويتوب عليه .

ـ ويرجع الى عمله بالحكومة .

ـ انشاء الله .

ـ باذن الله .

ولكن رغم كلمات خالى ووعده بأن الله سيتقبل دعوتها ويفسد الجرار ويرجع الأفندى الى وظيفته ، الا أنهـا تظل تبـكى وتقص قصتها مع الولد الخائب على كل من جاء يسألها حقيقة الأمر ،وهى ترفع رأسها الى السماء تضرع الى الله أن يخفف عنها هذا البلاء ، ويرحم ترملها وعجزها ولا يفرح فيها أحد من أهل القرية .

ولن يسكت أهل القرية ، سيقذفونني بكلمات مسمومة ، وربما أدى الأمر الى مقاطعتى، ربما أشاعوا عنى اننى مخبول وسيرفضون أن أحرث لهم الأرض ، أو أسقى لهم الـزرع ويضـــحك أحدهم ويقول :

ـ أفندى !! لا يفهم فى أمور الفلاحة .

يا قوم لست أفنديا ، فهذه ليست طائفة أو جنا أو حزبا ، أنا مثلكم ابن امرأة تجمع روث البهائم ، أنا ابن الطين .. ابنكم .. لى حق الحياة فى شمسكم دعوا قدمى فى الطين لأنبت سنابل قمح يأكلها عصفور ويغنى أغنية حب ، ليعود السلام الى القلب ، وأنبش بأظافرى فى التراب ، حتى أعثر على قطعة شمس نطهيها فـوق النار ونأكل منها حتى الشبع .

ـ كبريت من فضلك .

وأحسست أن يدا تهزنى . كانت لسـيدة جميلة تجلس بجوارى ، ترتدى ملابس قصيرة أكثر من اللازم وفى فمها ابتسامة وسيجارة ، شعرت بالخجل وابتسمت فى بلاهة وأنا أقول :

ـ آسف لا أدخن .

ـ خسارة .

وقذفت بالسيجارة من نافذة القطار ، ونظرت حولى فلم أجد سوى هذه السيدة أو الآنسـة لا أدرى ، ثائرة جدا تتحرك فى عصبية ، وصحت أحاسيسى على رائحة هذه الأنثى الصـارخة ، شعرها يميل الى الاصفرار ، تشوبه بعض الشعيرات الفضية ، فمها دقيق مصبوغ بالأحمر القاتم ، بشرتها بيضـاء ، بعض الخطوط الزرقاء حول عينيها وأسفلها ، أصابعها دقيقة بأظافر طويلة طليت بعناية ترتدى ثوبا قصيرا ويظهر من أسفله ثوب داخلى محلى بنقوش جميلة ، وبدت ساقاها من خلال جوربها الحريرى بيضـاء يشوبها شيء من الحمرة .. ضئيلة الحجم كأنها قطة نافرة أو كأنها فرس رهان ، وديعة كأنها غزال ، بها ما يجذب البصر ويشده ، بها مايجعل الانسان راغبا فى القسوة عليها . قالت بعصبية :

ـ شيء غريب ! ..

ـ ما هو ؟ .

ـ الجبل ، اتمنى أن أرى الجبل من قرب .

ونظرت من النافذة ، فالقطار عادة يمر على جبال كثيرة متكررة طوال الطريق ، ولكنى لم أجد جبلا ، بل حقولا ملآى بالزرع الأخضر . فأرجعت بصرى اليها وقلت فى أدب :

ـ بعد محطة واحدة ممكن لحضرتك رؤية الجبل .

وتظاهرت بالفـرحة وكأنى بشرتها بشرى عظيمة ثم وقفت تتطلع من النافذة تدلى رأسها بنشوة ويتطاير شعرها الأشقر كعلامة

التعجب ، وترفع احدى قدمها وتدقها بحماس ، ولم أستطيع الا أن أقف بجوارها أمام النافذة ورحت أشرح لها أنواع النباتات التى تنمو فى الحقول وهى سعيدة أو تتظاهر بأنها لأول مرة تسمع عن كل هذا .

ولكنى رغم عدم تصديقى للمظاهر التى تبديها ، سعدت بهـــا وتحمست فى حديثى وانطلقت أعدد لها فوائد هذا الزرع وقيمة هذا النبات .. وطال الحديث فجلسنا نستريح ، وتحـــول من أنواع النبات الى اسمى وعملى وعمرى ثم السؤال التقليدى عن الحـــالة الاجتمـــاعية . ولكن لم أخبرها بأننى متزوج ، وعرفت أسمهـــا (زيزت) وهى طالبة ولكنها تعمل فى المسرح والسينما وتظاهرت بالدهشة والسعادة التى غمرتنى لجلوسى بجوار نجمة من نجوم المسرح ، وعبرت عن أسفى لعدم مشـــاهدتى لهـــا على المسرح . وأخبرتنى بكبرياء أنها ذاهبة الى الأقصر لتؤدى دورا فى فيلم أجنبى لمدة ثلاثة أيام .

وان كان تعارفنا تم بسرعة وعلى أسس من الخداع أو على الأقل من التهويل .. فقد أحسست بشىء ما نحوها ، ويبدو أنهـــا هى الأخرى شعرت بشىء من ذلك ، فبدت أقل عصبية واكثر انطلاقا ومرحا وكرما ، وأخـــرجت من حقيبتهـــا بعض الأطعمـــة ودعتنى لأشاركها تناوله .

دعوتها لعربة الشاى لتناول بعض المشروبات ، وحاولت هى .. فى أول الأمر . التظاهر بالدراية الواسعة والمعرفة بكل أنواع المشروبات وبكل التقاليد المرعية فى مثل هذه العربات الأنيقـــة المملوءة بالسياح من كل البلاد .. ولكنها فشلت فى أول تجربة ولم تسعفها الكلمات الأجنبية التى حفظتها ، وانقذت الموقف وطلبت من الساقى عصير الليمون ، وابتسمت هى فى ارتباك وحاولت أن تقول شيئا ولكنها عادت وآثرت السكوت .

كان فى عقلى أفكار أود ان أصوغها فى كلمات وألقى بها خارجا ولا يهمنى من يسمعها .. وسواء أكانت (زيزت) تفهم ما أقول أو لاتفهم .. فقد استمعت جيدا وهى تهز رأسها فى ثقة وانطلقت أتحدث وأحكى وأقص وأترجم خواطرى وأحلل الأمور ، وأحيانا أجد نفسى قد انسقت بعض الشيء وقلت كلاما غير مفهوم ولكنها كانت تهز رأسها مستحسنة ما أقول .. وجاء الساقى يرفع الأكواب ويأتى بأكواب الشاى الساخنة مع قطع الحلوى ، وأسرعنا بالتهامها والحديث يندفع وانا أروى ذكرياتى وهى تنصت وأحيانا تؤكد لى أنها معى وتؤيدنى ببعض الكلمات .

ووقف القطار فى محطة أسيوط ، وراودتنى نفسى ألا أهبط ، كانت التجربة مع (زيزت) تستهوينى . فلم يسبق أن حدثت فى حياتى ولست واثقا من حدوثها فى المستقبل ، وتشبثى بها الآن ليس أمرا شاذا بل تشبثا حقيقيا لانسان كان يرى الفتيات الجميلات فى أحلامه فقط .

وزيزت فتاة جميلة ولطيفة وممثلة وتستمع الى فى اهتمام وهى فوق ذلك لا تتكلم كثيرا . ثم ان يوما آخر بالأقصر معها ، لن يضيرنى ولن يؤجل مشروعى ولن يعوق تقدمى بل سيساعدنى ويمدنى بالقوة وحينما انتهيت الى هذا القرار ، كان القطار متجها الى الأقصر تاركا أسيوط خلفه ، وعدنا الى المقصورة نجلس فى هدوء وانسجام نواصل من الحديث ما انقطع ، وسألتنى بخبث ودلال :

ــ أنا كنت فاهمة انك نازل أسيوط ..

ــ صحيح .

ــ وبعدين ؟

ــ لا شيء .. سأقضى معك يوما فى الأقصر . فلم أشاهدهم وهم يصورون الأفلام .. الا اذا كان عندك مانع ؟

ـ أبدا •• بدا ••

وران عليها الصمت ، وخيل الى أنها لم تكن تتوقع منى هذا الاندفاع ، أو لعلها تتظاهر بالمباغتة ، أو انها تفكر فى التخلص منى وآثرت السكوت وأنا ألوم نفسي واندفاعها ، وأعنفها على الدخول فى مغامرة عاطفية مع فتاة لاشـك أنها تكذب على وتكتم عنى حقيقة أمرها ..

وطال صمتها وكثرت التساؤلات فى عقلى وكثرت الاقتراحات وحاولت أن أنطق بشيء ولكن فمى ظل مقفلا ثم اضطررت الى الحديث حينما أتى محصـل القطار ولم يعفنى من بعض الكلمات المناسبة فى مثل هذه الحـالات ، وعندما غادر المحصل المقصـورة ، راحت زيزت تنعته بصفات غير مهذبة لتطاوله على أناس مهذبين مثلنا ، وحينئذ ضحكت وطيبت خاطرها ، وكان هذا ايذانا بعودة الحديث الى عنفوانه ، وارتفعت الكلفة بيننا ، واختفى التوتر الذى كنت أعانيه • ولم أشعر الا والحمالون يسألوننا فى محطة الأقصر الى أى فندق نقصد ، وهتفت أنا مرحا وكأننى أملك كل شيء :

ـ أحسن لوكاندة هنا ••

وسرت السعادة والبشر على وجوه الحمالين وانتشوا جميعا، وبسرعة كنا ننطلق فى احدى عربات الحنطـور .

السجاد الأحمر ، المقاعد المريحة •• وضحكات نساء جميلات ناعمة وهواء مكيف ورجال يدخنون ، وجو من الخيال •• ثم قفز من السقف عملاق أسود عارى الصدر وهز رأسه وضحك ضحكة خشنة واقترب منى ، حاولت أن أغوص فى المقعد •• ولكن المقعد هرب وتركنى أسقط على الأرض على السجـاد ، السجـاد ناعم ويشعرك بالأمن • ولكن العملاق جذبنى من شعر رأسى ثم رفعنى الى أعلى وقذف بى ، طرت فى الهواء وارتفعت حتى خرجت من سقف الحجرة .. واندفعت نحو النيل .. وسقطت فجأة فى المـاء وصرخت من برودته .

- ٢٢ -

تأخرت عودتى الى أسيوط أسبوعا قضيته بصحبة (زيزت) ولولا نفاد النقود لمكثت أكثر من أسبوع مع هذه الفتاة المرحةالجميلة التى لم أحادث ولم أختلط بأجمل منها ، ولكن كان على أن أعودالى أسيوط لأنهى حياتى فيها وأسلم القلم لرئيسى المباشر معلنا اياه بصوت معتدل ليس بالخفيض ولا بالصراخ ، وفى ثقة أقول :

ـ يا سيادة الرئيس المبجل ، مع احترامى لشخصكم المحبوب ، ومع حبى لظرف سعادتكم ومع شغفى بحديثكم العذب ، أعلنكم بكل أسف أننى من اليوم أعتبر نفسى شخصيا حرا طليقا من قيود دفتركم الملعون الذى تسجلون فيه حضورى وانصرافى كل يوم بالدقة المعهودة فيكم ، ورغم حزنى لاختفاء اسمى من هذا الدفتر فاننى سعيد ، وسأحقق لكم رجاء طالما تمنيتموه وهو اختفائى من أمام سعادتكم ، واراحة المكتب من وجودى المنفر ، والذى كان يسبب لسيادتكم بعض الضيق .

ثم أنحنى احتراما واجلالا ، وأنا أمسح دمعتين كادتا تسقطان على خدى وسوف يتأثر موريس أفندى ، وربما احتضننى فى قوة وهو يؤكد لى أننى مثل ابنه وأنه يحبنى كل الحب وأنه كان يعاملنى هذه المعاملة ليجعل منى رجلا فى المستقبل .. وسيجتمع الزملاء ورؤساء الزملاء ومدير القسم ومدير الأقسام الأخرى ، وربما المدير العام ليروا هذا المنظر الفريد من الحب الخالص والوداع الرقيق ،

وسوف يبكون ويخرجون مناديلهم البيضاء المخططة يمسحون بها دموعهم ويلوحون لى بها مودعين ، وحينئذ أخرج بين عاصفة من الانفعالات الرقيقة ، وبالطبع سيظل العمل فى هذا اليوم معطلا بسبب انشغالهم فى الحديث عنى .. سلوكى الحميد ، أخلاقى المثالية .. وعن الشخص الذى لا يعوض .

وحينما ذهبت الى المنزل وجدت زوجتى فى منزل أمها غاضبة لا تنوى التحرك الى منزلنا مهما كانت الأسباب ، صامته وكأنها أبو الهول تحمل سر غضبها فى غيظ ، وضاعت محاولاتى فى اسعادها أو مصالحتها أو حتى فى معرفة سر حزنها الشديد ، وذهبت أدراج الرياح كل الكلمات الطيبة التى حاولت أن أكسب بها رضاء زوجتى . وأخيرا عدت وحدى ربما تأتى هى بمفردها دون توسل أو استعطاف أو استجداء ، وما كان يدفعنى الى كل هذا ، اضطرارى لاقناعها بالسفر معى الى القرية لتنفيذ مشروعى الجديد .. ولكنى فشلت فى الخطوة الأولى .

فى الصباح ذهبت الى العمل حيث وجدت الأمور فى غير موضعها ، ولم تكن بالسهولة التى تخيلتها فهناك قرار بنقلى الى منطقة الجيزة وهذا القرار لو أنه صدر من أسبوعين فقط لجعلنى أطير من الفرح وأرقص من السعادة فالنقل الى الشمال كفيل باسعاد موظف مغترب مثلى فهو يعنى الشىء الكثير ، ويحمل لى أمل الاقتراب من بلدتى فى شمال الوادى . ولكن القرار لم يسعدنى ولم يجعلنى أقفز فى الهواء فرحا .. رغم أن الجيزة لا تبعد عن بلدتى أكثر من ساعتين فى السيارة ولكن القرار وضعنى موضع تردد من مشروعى الأول . فهو يعنى الدخول فى تجربة جديدة وربما أحصل على عمل أنسب هناك بالاضافة الى لذة الجديد فى التجربة ، فهل معنى هذا أننى أترك مشروع الجرار وانصرف عنه طالما أننى سأكون قريبا من بلدتى ومن القاهرة حيث كل ما يمتع أحاسيس الانسان

.. أم أن مشروعى يجب تنفيذه سواء نقلت أو لم أنقل ، واستقالتى يجب أن أقدمها سواء تم النقل أو لم يتم ، ولا يهمنى القرار .

ووجدت رئيس القسم يحسدنى على قرار النقل ويحاول أن يوضح لى أنه السبب . وتحدث عن مركزى الجديد الذى سأحتله فى فرع الجيزة أكثر من ساعة ، ولكنه طلب منى فى آخر حديثه توضيح سبب تأخرى وعدم عودتى فى الموعد المقرر لانتهاء الاجازة ، وأنه سيطلب تحويلى الى التحقيق ، وحرت فيما أقوله له . كيف أفسر له هذا التأخر ، ثم ان صورة ذهابى الى هذا المحقق النحيف ذى الشارب المربع رفعت المرارة الى فمى ـ فقلت وأنا أتظاهر بالحزن :

ـ أمى كانت مريضة .

ـ شفاها الله .. شفاها الله .

وأخرج ورقة وكتب عليها بعض الكلمات وأعطانى القلم لأوقع بالعلم ، وما أن قرأت ما كتبه حتى وضعت القلم جانبا بهدوء وقلت :

ـ قدمت استقالتى .

ـ استقالة !!

وكأنه أصيب بلدغة ثعبان . فوقف مشدوها وهو يردد :

ـ لا .. لا .. استقالة .. غير معقول ..

تركته وانصرفت ، فمثل موريس أفندى لا يؤمن بالاستقالات ، ولا يتصور أن موظفا فى عمل يستقيل ويترك عمله الا بأحد الحدثين الموت أو الرفت .. اما أن يستقيل بنفسه فليس هذا معقولا .. من الممكن أن ينقل أو يرقى أو يفصل أو يحال على المعاش أو يوقف عن العمل بعض الوقت . ولكن بكل حريته يستقيل ؟ ، حتى لو كان السبب غيابا بدون اذن لمدة اسبوع فهذا أيضا من الممكن تلافيه

بخطاب من طبيب بشهادة وفاة أحد الأقارب أو بمذكرة تكتب بشيء من الذكاء • وقد كان موريس أفندى دائما يذكرنا بأنه موظف مثالى خدم فى الحكومة والهيئات أكثر من سبعة وعشرين عاما دون عقاب أو حتى دون لفت نظر واحد .

لم يودعنى موريس أفندى ولا الزملاء فى القسم ولا زملاء الأقسام الأخرى ، فقط .. ابلغنى مدير مكتب المدير بأنه يجب الانتهاء من بعض الاجراءات المتبعة فى مثل هذه الحالاتوالتى لن تستغرق أكثر من أسبوع وبعدها أصبح حرا .

وخرجت من باب المؤسسة لا دموع ولا مناديل بيضاء . ولا حمراء ولا أحد اهتم بمثل هذا الأمر .. الناس يدخلون من الباب الكبير ، يصعدون السلالم ويتفرقون بين الحجرات والممرات وغيرهم يخرجون ، ماسحو الأحذية وبائعو المأكولات والملابس • أصحاب الحاجات وموظفو المؤسسة يدخلون ويخرجون ، أضواء ودقات الأجراس ، ونداء أم على ابنها ولعنة رجل على ظلم آخر ، ولعنة من ولد لآخر قذفه بحجر ، وفتح الشارع الكبير ذراعيه والتهمنى بين أشباحه وأصواته الهادرة بأنين الحياة وبجنونها • وسرت فى أحشائه متطلعا الى وجوه القوم فى محاولة لفهم ما يخفونه عن الآخرين . فالانسان حيوان منافق بطبعه ، زيزت اسمها الحقيقى زينب، كانت تغطى ضعفها ووحدتها وفقرها بغطاء منالكبرياء وبعض الأصباغ . وسيجارة مشتعلة .. ولكن الانسان لا يستطيع أن يحمل أغطيته دائما ، فانه أحيانا يشعر بالتعب فيلقى بها ويجلس فى استرخاء بدون أغطية . فيظهر على حقيقة ، ضعفه وفقره ، نفسيته المحطمة وآماله الخائبة ، آلامه المبرحة ، يمذه يده سائلا المعونة .

زينب ، فتاة يتيمة لا أحد لها فى هذه الدنيا الا كبرياء جوفاء وبعض الأمانى والاحلام وكلمات معسولة يقولها أناس يملكون المال أو المنصب جاءت الى الأقصر •• ترتدى ثوب نجمة المسرح والسينما

لتجد أنهم عثروا على أخرى أقل أجرا وأكثر شبابا ، بكت امامهم ولكنهم طردوها بجفاء ، شكت لهم أنها جاءت من القاهرة بالدرجة الثانية وأنفقت كل مالها لتحضر الى الأقصر كما اتفقــوا معها ـ واظهرت خطاب الشركة ولكنهم ضحكوا من سذاجتها وطردوها .

مسكينة زينب ، رأيت الخطاب وسألت من يعملون فى الفيلم فعلمت منهم بأن كل هذا جائز ويحدث دائما .. طالمـا آن الأمر متعلق بأحد أفراد الكورس فلا خطابات معتمدة .. ولا اتفاقيات .

وأحست زنيب بالمهانة ، صرخت . بكت . تعرت من الأغطية . رأيتها على حقيقتها . فشعرت بشيء ما نحوها ، ليس الحب ولا العطف ولا الشفقة ، شيء ماغير هذا كله ، جعلنى أقضى معها أسبوعا نمرح ونقضى أياما جميلة فى الأقصر .

وحدثتنى زنيب عن حياتها كثيرا ، قصص وحكايات ، بعضها حقيقى وبعضها مغطى بطبقة من الخيــال أو التهويل لتخفى شيئـا لا تحب أن يعرفه غيرها . أو شيئـا تود أن تنســاه ولم أحاول آن أسد عليها المنافذ وأحقق فى حكاياتها الصغيرة ، تركت لهـا الأمر تغطى ما تشاء وتصارح بما تريده ، أستمع اليهــا وأتبين بنفسى ما يمكن أن يكون حقيقى وما هو براق . ولـكنى لاحظت من خلال حديثها أن هناك أملا لم يخب ولم يتحقق بعد .. ربما فارس شجاع يخطفها ويطير بها الى أرض خضراء حديثة الولادة حيث الأمن والحب والسلام ، وربما يكون هذا الفارس مخرجا كبيرا يكتشف فيهـا الموهبة النادرة ، وربما يكون ثريا متخما بالمال يهواها ويبنى لهـا قصرا على الخليج ، أو على الأقل شـابا يساندها فى الحيــاة ، وتعيش فى ظله ، ومن الجـائز أن الأمل ليس فارسـا ، بل مجرد حلم تصنع حياتها بنفسها تجمع كل الروث الذى عاشت فيه حتى الآن وتصنع منه هرما تقف فوقه لتبلغ قمة وجودها الانســانى ، وسواء كان الأمر هكذا أو لم يكن فان شبح الأمل ، الذى لم يتحقق

بعد ، لم يخب فيه الرجاء ، ويلمع بين كلماتها ويجعل عيونها تبرق بالسعادة .

ولم أقل شيئا وأنا أودعها فى نهاية اللعبة ، لم نتفق على اللقاء ولم تسألنى عن شيء تستدل به على مكانى . وكأن حياتنا معا وقفت عند هذه اللحظة . كل منا قام بدوره ، قمت أنا بدور الفارس الذى اقتحم حياتها وحملها فوق فرسه ليشاهدا معا معابد الفراعنة ، ويعبران النهر ليجلسا فوق الكهوف ، وقامت هى بدور الحورية الجميلة التى مسحت عن فتاها قطرات الألم وهى تغنى أغنيات الحب .

حدثتها عن مشروعى .. ولم أكن أقصد استشارتها أو طلب النصح ، بل كنت أطرحه خارجا لأراه بعينى وبعقلى لأدرسه وأنا أقصه . لوحت لها بمنديل أبيض وابتسمت واختفت مع القطار لتعود الى حياتها بين الأضواء لعلها تجد وجودها الحقيقى .

زيزيت .. أين أنت ؟ ربما أجدها هنا بين هؤلاء ، وألمح طيفها يبرق من السماء ملاك حزين فى يده تذكرة دعوة لايجد من يأخذها ، فجلس على سور الجنة وغلبه النوم فسقطت التذكرة .

ظللت أبحث عن دسوقى طيلة اليوم حتى وجدته يجرب الجرار الجديد ، وما أن رآنى حتى أسرع الى وأخبرنى فى ثورة استقباله العارم .. اننى غبت عنه طويلا ، وأحسست بصدق كلامه . وجلسنا لنشرب الشاى أكثر من مرة والكلمات لاتفى بالغرض ، كان كل منا يود أن يحدث الآخر بما فعله أو حدث له أثناء مدة الغياب ، كنت أود أن أخبره عن الاستقالة وزيزيت وغضب زوجتى وما رأيته فى القاهرة والمعلم جابر وحارة الورشة ومصطفى ، وخبر نقلى الى الجيزة ولكن الوقت يمر ولديه هو الآخر شريطا طويلا من

الحديث عن حوادث مرت به . ولكنى قصصت عليه بسرعة مشروعى الجديد ورغبتى فى شراء الجرار .

وسكت دسوقى طويلا حتى خفت وفكرت أنه ممانع فى الأمر وشعرت بالندم لأننى أقمت مشروعى على أســـاس موافقتــه ولم أناقش مع نفسى مبدأ رفضـــه • وداريت تلهفى لسمـــاع رده ، فى قراءة ما كتب على الجرار الجديد بصوت مرتفع ولكنه قال مقاطعا :

ـ الموضوع صعب ، خسارة تترك عملك •

ـ دسوقى أنت خائف على ثمن الجرار ؟

فانتفض غاضبا وهو يصيح :

ـ جرار ، فى ستين داهيه الجرار ، كلمتك تســـاوى عندى عشرين جرار •

وأردت أن أخفف عنه غضبه أو أوضح كلامى ولكنه لم يدعنى أكمل الحديث وأقسم أن الجرار ملكى من الآن ولا يقبل من مناقشة فى هذا الأمر بعد الآن •

وآثرت أن أسكت قليلا حتى يهدأ ثم أعاود الحديث معــه مرة أخرى فأنا أحتاج الى نصائحه فى عملى الجديد ، وسوف أرحل بعد أسبوع فلا داعى لاغضابه وأحس هو أنه اندفع فى غضبه دون مبرر واستأذن مدة قصيرة حتى يضـــع الجرار فى مكانــه ثم يأتى لنعود سويا •

جلست فى خلال هذه المدة أفكر فيما أفعله كيف أرتب أمورى وأسوى أمر زوجتى ، وواجهت سؤالا شغلنى التفكير فيه عن بقية الأمور :

ـ هل أنا مقتنع تمـــاما بما أنا مقدم عليـــه ؟ أم أنـــه نوع من الاندفـــاع أو اللهو الأخرق سرعان مايتلاشى ولا يبقى الا النـــدم والضياع ؟

وصرفني التفكير في الاجابة على هذا السؤال ، عن النظر الى ما يفعله دسوقي حتى جاء وصحبني الى منزله .

شعرت بالهدوء والراحة في منزل دسوقي ، الحيـاة البسيطة الخاليـة من التعقيدات ، حيث الزوجة الحنون التي حولت المنزل الى جنة حقيقية ، والأطفال يلعبون في سعـادة حولنا يداعبهم في حنان وحب ، الأثاث بسيط ومريح . كل شيء يحمل اليك رائحـة السعادة ، مفارش بيضـاء منقوشة باليد ، رسوم بسيطة سـاذجة تعبر عن الايمان بالله . وقدمت لنا زوجة دسوقي طعاما لم أكن ذقته من قبل ، وهو خليط من اللبن والعسل والفطائر والسمن وأشياء أخرى لا أذكرها .. رغم أن دسوقي شرح لي كيف يعدونها .

وبعد أكواب الشاي التي شربناها ، كنت في حالة تسمح لي بالتحدث في هدوء الى دسوقي واخذت أشرح له ما انتويت الاقدام عليه . وحاولت أن أبين له سبب كل هذا . وأنا في الحقيقة كنت أجيب على السؤال الذي كان يشغل تفكيري ، وكلما أقتنع دسوقي بما أقوله زاد اقتنـاعي أنا الآخر ، وانتهت الى حقيقـة هامة اما أن أكون الأول في عملي أولا أكون ، ولن أنجح في العمل وأتقدم فيه الا اذا أحببته ، لا يهم نوع العمل .. ولكن المهم أن تحبه أن تتقنه ، ورد دسوقي :

ــ فعلا ، ليست الحياة مجرد شهادة من المدرسة أو الجامعة .

صدقت يا دسوقي .. يجب أن يفهم الانسان دوره في الحياة . وليست الشهادة الجامعية تذكرة دخول الى المكاتب ولكنها قبل كل شيء علم أولا ثم عمل .

وأخذت نفسا عميقا ، وانتشيت بحديثي مع دسوقي ، وشعرت أن عقلي أصبح صافيا مرتفعا عن خيوط العنكبوت التي نسجتهـا طوال حياتي .

ـ زيزت هل تودين معرفة عنوانى الجديد .. ربما أرسلت لى تذكرة دعوة لدخولى أحد أفلامك .

ـ اكتبى اذن الى قرية الكادحين ، بجوار ترعة الساحل ، عند الساقية يصل ويسلم ليد الأسطى صاحب الجرار .

ـ ولكن لا .. لا .. لا أحلام بعد اليوم .

ـ آسف يا صديقى ، أن لك الحق كل الحق فى أن تحلم .. ولكن يجب عليك أولا أن تتعلم كيف تحلم .

خرجت من منزل دسوقى وأنا أضحك .

- ٢٣ -

كانت مشكلتى التالية ، كيف أقنع زوجتى بالرحيل معى الى القرية لتصبح زوجة سائق جرار ؟ هى متحصنة فى منزل أمها لا تريد مبارحته ، ولا تعطينى فرصــة الانفراد بهــا حتى أحاول التحدث معها واقناعها بفكرتى .. وكلما ذهبت اليها وجدتهــا مع أمها وكلما حاولت جذبها بعيدا عن أمها التصقت أكثر .

ماذا فعل ولم يبق سوى ثلاث ايام على الموعد الذى حددته لرحيلى .. وأخيرا أهتديت الى فــكرة نمت فى فراشى متظاهرا بالمرض وأرسلت أحدى فتيات جارتنا الى زوجتى لتخبرها بالأمر ولكن طال انتظارى لها وساورتنى الشكوك هل الفتاة حملت النبأ لزوجتى واخبرتها به ، أم انها لم تفعل واكتفت بأخذ قطعة النقود أم أنها أخبرتها وهى لا تود الحضور ومعنى هذا أنه لا يهمها أمرى .

الأمور تتشابك وتوحى بكارثة . حينما تزوجت تم هذا بسلبية منى ، وحتى الآن لا أعرف هل أحب زوجتى أم لا احبها ... هل لو أدى الأمر الى الانفصال عنها أفعل أم أننى أجبن عنــه ؟ وهل هذا الجبن نتيجة حبى لها أم لسبب آخر اقرب الى الأسباب التى من أجلها تزوجت فاطمة ؟

لقد فــكرت كثيرا فى عملى . وحينمــا اهتديت الى وجوب تغييره ، غيرته ولم يبق سوى ثلاثة أيام وبعدها أبدأ فى أولى مراحل العمل الجديد . والحياة تأتى للانسان مرة واحدة ، ودفعة واحدة



أن امتلكها وعاشها .. فهي له وان ضيعها فهي عليه ، والاحلام تأكل الصدور والعقول ولا تترك الا رمادا تذروه الرياح ، ولا يبقى فى اليد الا اتساخها من الرماد المحروق فان كنت أحب زوجتي عشت معها وانا سعيد .. وان كان ما بيني وبينها ليس حبا فلأسرحها بالمعروف . واحمل عصاى وارحل وليكن فى قريتي حياة جديدة فى بيت جديد .

ذهبت حتى شاطىء النهر ، الجو ساكن والرياح هادئة ، وامواج النهر نائمة بجوار الشاطىء ، والشمس ترقد على الشاطىء الاخر ، ورجل فى ملابس سوداء يجلس القرفصاء . ترددت فى أن أقترب منه ولكنه أشاح بعضا من الرداء حول رأسه وابتسم وهو يقول :

ــ اقترب يا ولدى .. لاتخف .

واقتربت قليلا بحذر ، وانا فى حيرة من أمر هذا الرجل ،وقلت فى صوت مخنوق :

ــ السلام عليكم يا عم الشيخ .

وضحك الشيخ بصوت واضح ، وقال :

ــ الا تذكرني يابني ؟

فحاولت ان اتذكر ملامح وجهه ولكنني لم اهتد الى شىء فهززت رأسي وانا اقول :

ــ لا أذكر ..

ووقف بهدوء وأزاح الرداء كله عن جسمه ، فبدا كأنه عملاق اسمر يرتدى زى اهل قريتنا وعلى ذراعه وشم امراة نصفها الأعلى بشرى والنصف الأسفل ذيل سمكة كبيرة ، وعلى ذراعه الأخرى وشم أسد بيمينه سيف . وحاولت أن أتخيل من يكون هذا الرجل

فهو ولاشك من قريتى ويعرفنى من يكون ومن أين جاء والى أين هو ذاهب .

ونظر الى ثم ابتسم فى حنان وقال :

ـ انت تعرفنى تماما . لقد عشت معك سنوات طويلة منذ أن كنت طفلا تلعب فى .. الحوارى وحينما كنت شابا تجوب الطرق أيضا حينما أصبحت رجلا فكيف لا تذكرنى بعد كل هذا ؟ !!

واضطربت فلم يكن لى صداقة بأحد معين من اهل القرية .. كانوا يجلسون معنا فى الأجازات لمجرد الجلوس والحديث فى أمور عامة . فنحن رغم وجودنا فى القرية ونشأتنا بها الا أننا (أفندية) رغم هذا كله ، الملابس مميزة .. جلباب أفرنجى يتميز عن الجلباب البلدى الذى يرتديه أهل القرية ، رؤوسنا عارية ، فى اقدامنا نعل خفيف .. نعم ، نبدو نحن تلاميذ المدارس فى القرية . مثل طبقة خاصة .. طبقة الأفندية ، وليس لنا أصدقاء الى هذه الدرجة التى يقول عنها هذا الرجل .

ولا حظ الرجل طول تأملى .. فقال :

ـ لا فائدة من التذكر ، أنا مغاورى .

ـ عم مغاورى !!

ـ نعم .. هل هذا عجب .. اننى مت منذ وقت طويل ، ولكن رغم موتى فاننى أعيش معك فى أحلامك ، فى يقظتك ، وما أكثر ما تحادثنا سويا وكم ارهقتنى بسؤالك .. وكم أتعبتك بقصتى ..

وأحسست بنشوة ، ونسيت خوفى .. فاقتربت منه وقلت :

ـ ولكن هل أنت حقيقه ..

ـ نعم ياولدى .. ولماذا أكـذب عليك .. وأنت ذاهب الى قريتنا ، وربما زرت أبنائى وبيتى وحقلى .. كيف حالهم الآن ؟

ـ فى يسر بفضلك يا عم مغاورى وبفضل ..

ـ لا تكمل يا بني فهذا كذب ، محض خيال ، ولهذا أتيت اليك الآن ، لأزيل عن عقلك تلك الغشاوة التي تركتها حواديت الصبية وأحاديث السمر .

ـ ولكن ألم يكن الأمر حقيقيا .. أقصد علاقتك بالجنية ؟

ـ لا يا ولدى .. لقد عشت فى وهم كما عاش آخرون مثلك سمعوا القصة وتناولوها بالتحـــريف والتخويف حتى أصـــبحت أسطورة لا أساس لها من الحقيقة .

ـ لم يكن هناك جنية ؟

وضحك عم مغاورى . وشعرت بالخجل من السؤال ، وتلعثمت قليلا وأنا أقول :

ـ أنهم يقولون ذلك فى (الحدوته) .

ـ وهل كل حواديت القرية صادقة ؟ لقد أخترعها الشيوخ لأن القرية تنام فى الظلام بعد الغروب ، والشيوخ يزهدون النوم ، وليس أمامهم الا موقد يشتعل فيه بعض الحطب ، وفى نفوسهم تشتعل الأمانى المخنوقة ، فلا يطيق العقل فكاكا من النارين الا باختراع أمثال هذه الحواديت .

ـ ولكن لماذا معك أنت بالذات ؟

ـ (الحدوته) لها بعض الصلة بالواقع . فقد كنت شغوفا بعملى لدرجة العبادة ، وكنت أرى الله من خلال عملى ، فلم اترك الحقل أبدا ، وكان ما يحزننى هــو فيضان النهر كل عام فيغرق المحصول ويذهب مجهود العام كله . فوضعت كل اهتمامى فى تقوية الجسر ، حتى أننى كنت كثيرا ما أجلس أحرسه بالليل واحيانا كنت أغفو فلا أشعر بنفسى الا قبل الفجر . وعرف الناس عنى هذه

العادة ، فكيف يفسرونها ؟ ، والبحر فى عقولهم ملىء بالجنيــات ومن يجرؤ على الاقتراب من النهر فى الليل الدامس الا صديق جنية منهن ، وهكذا اطلقوا على صديق الجنية .

ـ ولم تأت الجنية وكأنها حمار ؟

ـ ولا حتى كلب .

ـ وكيف اقمت الجسر الذى منع الفيضان عن ارضك ؟

ـ ......

وضحك عم مغاورى ضحكة طويلة والتقط الرداء وتلفع به وانا انتظر اجابته ولكنه سار الى الأمام مباشرة ولم يتلفت نحوى ولم اجرؤ على الاقتراب منه حتى اختفى .. ولكنى صحت بأعلى صوتى حينما رايته يغرق في ماء النهر وظللت أصيح حتى أحسست بشىء بارد حول جبهتى وفتحت عينى فرأيت فاطمه تبتسم وهى تقـــول :

ـ لقد كنت مريضا حقا .. .

ـ غيابك عنى يميت نفسى حزنا فأمرض .

ولم ترد لأنها لا تجيد صنعة الكلام ، فآثرت أن أتفرغ لما هو أهم .

الجو بالخارج يميل الى الانتعاش قليلا ومعظم أيام أسيوط لهيب يشوى الاجساد ، وليل أسيوط بارد يميت القلب ويحطم الضلوع ، ومن النادر أن يعتدل الجو ولا أدرى هل أعتدل لأننى مغادر أسيوط دون عودة أم انه اعتدل داخل نفسى فقط ؟ .. وربما انعكست حالتى النفسية على احساسى بالجو .. وعلى كل فقــد قررت أن أخرج الى النيل واصطحب زوجتى فى جولة تشبه تلك

الجولات التى كنت أقوم بها أيام كنت العب معها لعبة الحب .
ولم توافق كما أنها لم تعارض أيضا ولكنها ابتسمت فقط .

سرنا صنوب أسيوط الجديدة ، عبر النفق الذى يقسمها قسمين حينما دخلت الجامعة الى أسيوط ، انشأت أسيوط جديدة، أو بمعنى آخر ولدت أسيوط جديدة . المبانى المرتفعة والشوارع المرصوفة وحدائق الجامعة ومبانيها ومعاملها والاضواء التى ترسلها وجماهير الطلاب تغدو وتروح وتبعث فى شرايين أسيوط دماء جديدة .. هذا كله غير من وجه المدينة امتزجت فيه روح التقاليد القديمة للمدينة وروح الثورة التى جاءت مع الجامعة امتزاجا ادى الى خلق عالم جديد ، وزوجتى تسير بجوارى .. وأنا أتحدث اليها بكل ما فى نفسى .. هذا الهدوء يعجبنى وهذه المبانى بهندستها وألوانها الجميلة تثير اهتمامى أتمنى أن يعاد بناء كل أسيوط من جديد .. الشوارع ضيقة ، المبانى قديمة متهالكة وأزقة وحوارى ورائحة فقر ومنازعات فى كل أنحاء الحى القديم بينما جامعة مضيئة وعمائر وشوارع نظيفة واسعة ورائحة العلم والثورة فى كل انحاء الحى الجديد ..

ونظرت الى زوجتى ، انها من أسيوط ، وأنا الغريب عنها .. ولكنى تناسيت هذا وأخذت أشرح لها كل ما نراه بحماس وكأنها هى الغريبة وأنا ابن البلد ، ودار بنا الوقت ، وقطعنا طرقا طويلة حتى وصلنا الى حافة الخزان فأخذنا مجلسنا نتطلع الى تدفق الميـاه ..

كم أنا غبى لأننى لم أحب هذه الفتاة حبا خالصا دون احلام أو أمنيات ، ما عيبها ؟ لا شىء ، لقد كان العيب فى رأسى وفى مايدور فى هذا الرأس البليد الغبى ، ها هى زوجة لاعيب فيها ، وبدلا من أن أنظر اليها كما هى رحت أنظر الى ماينبغى أن تكون اذا وجدت أخرى لها عيون خضراء . لعنت حظى لأن زوجتى عيونها

سوداء ، واذا رأيت سيدة بيضاء لعنت سمرة زوجتى ، وان كانت السيدة تميل الى السمنة ، فزوجتى نحيفة وكأنهـــا قفص من الجريد الأسيوطى ونحافة زوجتى أيضا لا تعجب فهنـــاك أخريات رشيقات يسرن فى الشارع بملابسهن الضيقة ولا يمكن قيـــاس بدانة زوجتى برشاقتهن ، واذا قابلت جامعية تضع النظارات حول عينيها وتنوء بما تحمله من مراجع وكتب ، فيـــالقبح الجهل فى زوجتى ، واللعنة عليها لأنها اكتفت بشهادتها المتوسطة وهـــكذا لاينتهى بى الحال الا على أن حظى سيىء وزواجى كان فاشلا ، وأنه كان ينبغى البحث عن زوجة أكثر رقة وجمالا وتعليما .

ونظرت الى زوجتى مرة أخرى ، أستعيد أفكارى عنها ، كم من الليالى نمت مقهورا مغلوبا على أمرى ، حزينا العن حظى فى الدنيا لأن زوجتى لا تجيد الحديث ، كم من الساعات قضيتها فى كآبة لأن زوجتى تجلس صامتة منهمكة فى أعمال الابرة أوالخياطة أو شىء مثل هذا ..

وصحوت على صوت زوجتى وهى تقول :

ـ أنت نايم ؟..

ـ آفـــكار ..

ـ خير انشاء الله ..

وواجهت عينى زوجتى السمراء وقلت :

ـ بتحبينى ..؟

واجفلت ثم اطرقت فى خجل وكأنها مازالت فتاة صغيرة .. وأنكرت عليها هذا الصمت ، وصحت فيها :

ـ تحبينى ..؟

ـ طبعـــا ..

ـ طبعا .. من غير طبعا ، أريد اجابة محددة فيكلمة واحدة.
اهتزت وهى تبتسم فى ارتباك ..

ـ أحبـــك ..

ثم نظرت الى فى ابتسامة حنون وكأننى مريض ، فارتبكت قليلا ، وشعرت بسخافة السؤال وبسخافة التفكير فيه ، ولـكن برق فى عقلى خاطر ، ووجدت الفرصة مناسبة .. لأشرح لهـــا ما اعتزمت عليه :

ـ أنا مسافر البلد يوم الخميس .

ـ ومتى تعود ؟

ـ انت أيضا مسافرة معى .

ـ انشاء الله .

ـ أنا وانت سنسافر الى البلد نهائيا .

ولم ترد بكلمة واحدة ، فأكملت حديثى بسرعة :

ـ استقلت .. وقبلوا الاستقالة .. واشتريت جرارا .

وكأننى انتهزت فرصة سكوتها ، ورحت فى كلمات سريعــة متلاحقة حتى لا أعطيها فرصة الرد أو التفكير فى الاعتراض ، أسرد عليها مشروعى الجديد ودورها فى هذا المشروع .. وبحماسى أخذت أشرح لها الأمور . أليست زوجتى ومن الواجب على أن أفاتحها بما يدور فى عقلى ربما أكون على خطأ وهى أقرب الناس الى وأقلهم حسدا وطمعا فيما بين يدى وأكثرهم تعلقا بى وبمستقبلى ، فلم لا أقول كل ما أختزنه فى عقلى .

وعندما تذكرت أننى قلت كل شيء سكت وأنا أنتظر ردها .. ولـكنها قامت وهى تقول :

ـ الوقت سرقنا ..

ـ فصـلا ..

وسرنا نحو المنزل ، أنا غارق في أفكارى وتوقعات ردهـا ، وهي صامتة ويبدو عليها شيء من القلق وعندما أحسست أنهـا لا تود أن تعلق على الأمر ، آثرت أنا الآخر الصمت حتى وصلنـا الى المنزل ، وخلعت ملابسي وبدأت أستعد للاسترخاء على أحد المقاعد ، ولـكنها قالت لى قبل أن أقترب من المقعد :

ـ والشنط ؟..

وضحكت .. ضحكت بكل قواى حتى شُعرت بالراحـة ، وأخذتها بين أحضانى فرحا بها .. سعيدا بقرارهـا ، ولـكنها تملصت منى وهى تقول :

ـ كان لازم تخبرنى عما يدور فى فـكرك .

وحاولت أن ألحق بها وأفسر لها موقفى أو أسترضيها ولكنها كانت تفلت منى وهى تقول :

ـ ليس الآن ، الوقت ضيق وأمامنا أشياء كثيرة ، تصور كل ما فى المنزل يجب حزمه وشحنه وكذلك الملابس وأشياء أخرى كثيرة ولم يعد هناك وقت كاف .

ـ ولـكنى أحبك .. وأريدك أن تعلمى بذلك .

ـ سيكون لدينا وقت بعد الرحيل لهذا الأمر .

واضطررت للـكف عن الـكلام ، وانهمكت معهـا فى ترتيب الأشياء وتصنيفها وحزمها ، ورحنا فى هـذه الدوامة حتى يوم السـفر .

- ٢٤ -

كانت المحطة مزدحمة على غير العادة ، فرق كشافة ، جماعات من الطلبة فى رحلة ، مسافرون ، ومودعوهم ، حقائب كثيرة .. أربطة ملابس .. صناديق الكتب .. حقائب ملابس زوجتى ، أربطة الأدوات المنزلية ، أجولة بها عدس وفول هــــدايا لأمى .. وأنا وزوجتى غارقان فى بحر من الارتباك ، وأمها تصرخ :

ـ خد بالك من العفش .

ثم تبكى ولا تكف أبدا .. أخوات زوجتى وأقاربها يحيطون بنـــا ..

ـ الاشارة لقطار القاهرة .

ـ أبدا .. الاشارة لفوق .

بعضهم يرسم خطة القفز السريع الى القطـــار وآخر يقترح قذف الحاجيات أولا ثم القفز .. بعدها أضـــمن حتى لا نترك شيئـــا ..

ـ ارسلى الخطاب فور وصولك ..

ـ حاضر ..

ويضحك أحدهم ، ويتحدثون فى موضوع مختلف ، تؤكد لى أم زوجتى وهى ما زالت تبكى :

ـ حافظ عليها يا ولدى .

ـ حاضر ..

زوجتى تدور وتتحسس الحقائب والأربطة فى ارتباك واضح ثم تذهب الى أمها وتلومها بشدة لأنها تبكى ، وتنهـر طفـلا يعبث برباط احدى الحقائب وبعد ذلك تأتى لتقف بجوارى وتسألنى :

ـ التذاكر ؟

ـ فى جيبى .

ـ تأكد منها حتى لا تضيع .

ـ حاضر ..

واقف سـاكتا ، ولـكن خوف زوجتى على تذاكر السـفر يدفعنى الى البحث عنها فلا أجدها لأول مرة ، وأعيد البحث فى كل جيوبى ويلاحظ الواقفون إفيأتى أحدهم ويسأل :

ـ ما الذى تبحث عنه ؟

ويجيب آخر :

ـ النقود ؟ هذه المحطة ملعونة بالسرقة .

ـ يجب أن تكون حريصا فالدنيا لم يعد لها أمان هذه الأيام .

ـ خير الحمد لله لاشىء ضاع .

ـ ابحث جيدا .

ـ دعنى أبحث معك .

ـ اعطنى هذه اللفافة .. وابحث مرة أخرى .

والـكل يتحرك حولى فى لهفة فزاد ارتباكى ، ينصحوننى بما يجب عمله . وانظر الى زوجتى واشعر انها سوف تلومنى لانى لم اسمع كلامها ، والتذاكر فى يدى ، اضعهـا فى جيبى الأيمن ثم انقلها الى الأيسر ثم فى جيب البنطلون ثم فى الجيب الداخلى ، واحتار أى جيب أضمن وأحسن وسأتذكره بسرعة .

والقطارات تأتى وتذهب وقطار بضائع يقف ويصرخ ، يجرى الحمالون ويسير القطار بضع خطوات ليقف مرة أخرى ، وأحدهم يقدم لى سيجارة ويقترح الآخر أن نذهب الى بوفيه المحطة وثالث يقاطعه لا داع فيجب انتظار القطار لأنه ينتظر أحـــدا ، زوجتى تتفقد الحاجيات مرة أخرى وبائع بيض يدور حولنا وينادى عليـــه فى الحاح ، والدنيا حر لا يطاق والعرق يتصبب منى وبائع الغازوزة يدق على زجاجة ، دقاته تصل الى أذنى وتثقبها ، لى رغبـــة فى ابتلاع قطعة ثلج أو شرب زجاجة ، الأصوات تتراكم وتسد عـلى عقلى طرق التفكير ، صفير قطار من بعيد ، قطار البضائع تحرك الى الأمام ، يجر خلفه عربات كثيرة محملة بأشياء لا رابط بينهـا .. سيارات ، جرارات ، عربة مملوءة بالقصب ، أجولة ، آلات رى ، والقطار يمر ، اسمدة ، أسمنت .. حديد والعربات تتوالى فى شريط سريع ، أغنام ، أبقار ، أحسست اننى أدور مع العربات وصوت العجلات وهى تصطدم بمفارق القضبان ، تك ، تك ، ثم تسرع أكثر ويرتفع التك أكثر ويتلاحق بسرعة .

ثم حركة شاملة ، الناس حولى يتحركون .. الحقائب ترتفـع فى الهواء ، نحيب وبكاء أصوات متقاطعة ارتبـــاك وســـلامات لا تنقطع .. السيدات يحطن زوجتى ورحن يقبلنهـا فى عنف وبصوت .. الرجال يتصايحون وينهرون السيدات .. المحطة تدور سلامات لا نهاية لها .. وجلست وصفير وحقـــائب حولى وتحت قدمى أربطة وجوالات ، لفائف على الرف وحول المقاعد وأسـفل المقاعد وامتلأت مقصورة القطار وزوجتى تقف ضائعة منهكة .. ورجل أصلع عجوز ينظر الينا فى استطلاع وفضول ولا يتحرك ، وأبعدت نظرى عنه فقد نفرت من نظرات عينيه ، زوجتى تلهث من الارهاق وتعيد ترتيب ملابسها ، درت بنظرى من نافذة القطار ، رأيت أسيوط وهى تبتعد ، مبانيها الصفراء القديمة والبيضـاء

الجديدة ، مآذن الجوامع ، وأبراج الـكنائس ، بعض السيارات تنزلق فى أحضانها والبعض الآخر يفر منها ، ورويدا ، رويدا ، بعدت أسيوط الجميلة ، الدافئة السمراء ، أو بعدت أنا عنهـا ، والقطار يسرع ، وكأنه يخشى ضعفه من مقاومة حبها ، أجمـل بلد فى الصعيد بلد الحب والجامعة ، والخزان ، بلد دسـوقى وفاطمة البلد الذى علمتنى سر الحياه .

وداعا يا أسيوط ، لا وداع الى الأبد ، بل وداع ، الى حين ، سأعود اليك ومعى هذه المرة أحلاما جديدة ، وأفكارا جديدة ، ومعى أيضا أولادا صغارا أتيت بهم ليتعلموا الحياة فى أسيوط .

وداعا يا بلدى .. حيث عشت ، حيث ثرت ، حيث وجـدت نفسى وتحررت من العبودية .. وداعا الى لقاء جديد ولن يمضى وقت طويل حتى أعود لأقف تحت شمسك وهى تنفذ الى عظامى .. الى دمى .. الى قلبى فأنتشى .

وداعا يا دسوقى ، ويا زوجة دسوقى ، واكلاتك الجميلة ، العصيدة الرشته ، والعسل المخلوط بالسكر والسمن ، والحنان المخلوط بالحب .. وضحكت أربع نساء جميلات وقدمن لى ثلاث فطـائر .

ـ تذوق طعامنا .. لقد طهيناه على الشمس .

ـ ومن الأرض أخذناه .

ـ ومن أحبال الحزن ..

ـ ومن عرق فلاح اسمر .

ـ ومن دموع أرملة .

ـ ومن أمنية عذراء .

ـ صنعناه لك .

ـ لكن لا .. لا أريد خبزكم .. ولا طعامكم .

ـ أحقا .. لقد كنت تأكله من قبل .

ـ واليوم لا أقبله ، سأحفر فى الأرض وأعثر على حبة قمح نبتت من الطين وأجعلها غذائى .

ـ اذا فعلت .. ستكون رائحة فمك كريهة ولن نأتى لك ولن ولن نلمسك .

ـ اذهبن لا أريدكن أبدا ..

يا عم مغاورى أين أنت ، ارشدنى الى الطريق السليم ، أنت أدرى أهل قريتى بنفوسهم وحكايات عجائزهم .. دلنى من أين أبدأ وكيف أبدا ، لتذهب عنى دور جنيـات ، سـأحفر الأرض باصابع الجـرار وأروى الزرع وأسير وسـط الحقول ، أغرث النبت فى الأرض السوداء وأبث تعليمى بين الناس ، فقط أرشدنى أرجوك .

ـ لا تخف يا بنى .

ـ انا خائف من الناس الذين سلبوك كفاحك وأعطوه للجن .

لقد تغير الناس يا ولدى ، فقد مات العجائز .

ـ ولـكن ..

لا يا ولدى لا .. ليس هنـــاك « لـكن » بعد الآن . أنظر .

ـ ماذا ياعم مغاورى ، أرى أرضا مفروشة بالزرع ، وأربع بقرات يأكلن الحصى ، وحصان أبيض يأكل قدم غلام ، وساقيـة تدور تسكب ماء فى النهر ، وردة حمراء وسط الحقل تبكى ..

ـ لن تذهب بعيدا ، فنحن جنيات البحر .

ـ وهل نسيت جنيات الليل ، المتدثرات بالسواد .

ـ لـماذا عدتن .. لا أريد رؤياكن .

ــ هل انت غاضب منـــا نحن جنيـــات الأمل والأحلام ‥ نحن ملكات الاسرار ٠

ــ لا كفانى ما عانيت من كلماتكن الجوفاء ٠

ــ ألا تريد أن تصعد الى السحابة الزرقاء حيث الأقمار الصغيرة تلاعبك وتداعبك وتغنى لك ٠

ــ لا ‥ أذهبن جميعا ٠

ــ ونحن جنيات الليل ، شريرات النفوس ، لا تخف هكذا ‥ فكم جلسنا معك ليالى بأكملها ، وانت فى الصحراء وأنت فى فراشك بجوار زوجتك ، انظر الى تلك الجواهر فى أيدينا ، نحن نعطى لمن يقترب منا ٠

ــ ماذا تعطين ؟

ــ جواهر الاحلام ٠

ــ عندى منها الكفاية ٠

ــ سوف تغضب وتحزن لرحيلنا عنك ٠

ــ اللعنة عليكن جميعا ، اذهبن عنى ، لا أحلام ولا جنيات ‥ أنا والناس فقط ‥

وصرخت بغضب من كل أعماقى ، وسقط كوب الشاى وتحطم وضحكت زوجتى فى توتر ٠ ورأيت حقـــول قريتى ، أننى أعرف رائحتها من بعيد ٠

ــ أنظرى ، ها هى قريتنا ، وبيتنا الجديد ٠

وابتسمت زوجتى فى سعادة ، ولم أشعر الا وأيادى اقاربى والسلامات والحقائب والأربطة واللفائف ٠

وصفر القطار واختفى ، وساد الهدوء حولى وفى داخلى ، لقد عدت الى مكانى الحقيقى يا أمى ، يا دســوقى ، ياجنيـات الأمل الحلو ،

ياقوم لقد عدت ، أسألوا عني وانظروا الى وأنا أقود جرار الحصاد يملأ أجولة المخازن ، ويضع حبات القمح فى طواحين العذارى ٠٠ ويجلب الحطب لأفران الأرامل ٠٠ ليرتفع دخان الشتـاء وتزغرد قدورهن ٠

يا زملاء القرار ، يا أصدقاء الجامعة ، أرسلوا الى بطاقاتكم فى العيد . اكتبوا على المظروف :

بجوار الترعة ، بعد الشجرة الســابعة بعد الألف من الناحية اليمنى ٠٠٠

يصل ويسلم الى الأسطى سائق الجرار رقم ٣٥ ٠

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر
بالقاهرة
فرع الصحافة

دار الكاتب العربى للطباعة والنشر
بالقاهرة

صحافة

الثمن ١٠